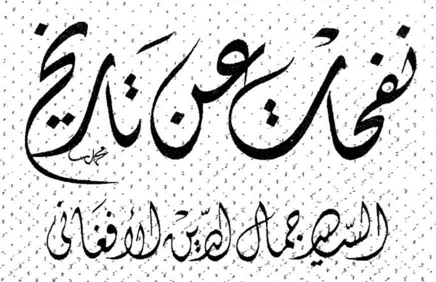
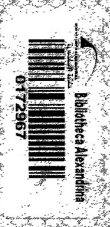
سلسلة الدراسات الأدبية
في
أفغانستان
"٣"



منقذ الشرق

تأليف
الدكتور محمد أمان صافي



نفحات عن تاريخ

السيد جمال الدين الأفغانى

الطبعة الأولى
١٤١١هـ = ١٣٦٩ هش = ١٩٩١ م

سلسلة الدراسات الأدبية
في
أفغانستان
"٣"



نفحات عن تاريخ

السيد جمال الدين الأفغاني

منقذ الشرق

تأليف
الدكتور محمد أسماح صافي



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب :

« نفحات عن تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى » دراسة تاريخية موجزة ، قمت بتأليفها وترتيبها وتنسيق ما ورد فيها من الآراء والمعلومات الخاصة بالأفغانى فى سنة ١٩٥٥م وأنا طالب أدرس بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، ولم أتمكن من طبعها ونشرها لظروف خاصة خارجة عن الإرادة ، وعلى رأسها كونى طالبا ، ومن المعروف أن المؤلف الطالب لا يحظى بالتشجيع والقبول بين المؤلفين والكتاب المشهورين ، ومع هذا كانت دراستى هذه موضع الاستفادة لكثير من الباحثين ، واستمرت الحالة هكذا حتى أراد الله أن تلبس ثوبا جديدا ببعض الإضافات والتنقيحات والملحقات ، وأن تظهر مطبوعة لتشارك فى إثراء المكتبة العربية بما فيها من الأفكار الإصلاحية ، والمناهج الثورية ، والمعلومات التاريخية الخاصة بهذا المصلح الإسلامى الثائر الذى حمل لواء الوحدة الإسلامية ، ورفع راية اليقظة فى الشرق قبل قرن من الزمن تقريبا .

وقد أثار رغبتى فى طبع هذا الكتاب ونشره ما يجرى الآن بمناسبة مرور قرن على وفاة الأفغانى من الحوار الهادف والمساجلة التاريخية التى أثارتها صحيفة « الشرق الأوسط » الغراء فى الأيام الأخيرة حول مدرسة جمال الدين الأفغانى الفكرية ، ومنهجه الإصلاحى ، ومسيرته السياسية ، وما تركه الرجل من الآثار الباقية فى حركة اليقظة الإسلامية التى تعرف اليوم باسم : الصحوة الإسلامية ، وذلك بالإضافة إلى ما أثير حول موطنه ومنبته من الثرثرة ولغو القول ، الذى أخذ موضع القيل والقال بين الكتاب والمفكرين فى العالم .

فى ظل هذه العوامل الملحة قمت بالاستجابة لرغبتى فى طبع هذا الكتاب ونشره لعله يهدم قلعة الافتراءات التى يوجهها الخصوم إلى السيد جمال الدين الأفغانى ؛ فى موطنه وفكره وعقيدته .

آراء مشاهير الشرق والغرب فى الأفغانى

« لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا تاريخ لهم إذا لم يقم منهم من يحيى آثار رجال تاريخهم ، فيعمل عملهم ، وينسج على متوالهم »

جمال الدين الأفغانى

« ... وبالجملة فإنى لو قلت : إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة ، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ »

محمد عبده نابغة مصر

« إن تاريخ السيد جمال الدين هو تاريخ المسألة الشرقية كلها فى الأزمان الحديثة »

بــراون

« ... إنه فى تاريخ الشرق الحديث أول داع إلى الحرية ، وأول شهيد فى سبيلها »

مصطفى عبد الرازق

« تعرفت بالشيخ جمال الدين فوقع فى نفسى ما لم يقع لى إلا من القليلين ، وأثر فىَّ تأثيرا قويا ، وقد خيل إلىَّ من حرية فكره ونبالة شيمته وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنى أرى أحد معارفى من القدماء وجها لوجه ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد ... »

ريـــنان

« قابلت السيد جمال الدين المتحدر من سلالة النبى والمعدود هو أيضا نبيا ... وقد شعرت نحوه بعاطفة الحب التى تربطنى بكل داع إلى ثورة أو مقاوم لاستبداد »

هنرى روشفور

مقدمة

الحمد لله الذى خلق الإنسان وعلمه البيان ، وجعل سيرة الأوائل عبرة للأواخر فى كل مكان وزمان ، والصلاة والسلام على محمد خير الأنام ، وعلى آله الأبرار ، وأصحابه الكرام .

يجدر بنا – قبل أن نستعرض أدوار تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى والعوامل التى أدت إلى هذا التطور الفكرى فى الشرق أن نذكر بعض الشىء عن تاريخ الأربعة والعشرين مليون أفغانى (بختونى = بشتونى = بتانى) قوم السيد الأفغانى حكيم الشرق ، والبلاد التى يتألف منها وطنهم تنويرا على الموضوع وتوضيحا ، وتعارفا بين الناس وزيادة فى المعرفة بينهم :﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوٓا ﴾ . (سورة الحجرات الآية رقم ١٣)

أفغانستان

هى عبارة عن تلك الأقطار والأقاليم الإسلامية الفسيحة الخضراء والجبال الشاهقة ، التى تحدها غربا إيران وشمالا الأقاليم الإسلامية التى يحتلها الاتحاد السوفيتى وشرقا إقليم الحدود الشمالية الغربية (بشاور) وجنوبا بلوجستان ذات أهمية كبيرة بباكستان .

وتنقسم إداريا إلى عدد من المقاطعات أو الولايات منها :

أفغانستان الشرقية
(مشرقى)

تتألف هذه الولاية الأفغانية الشرقية من ثلاثة أقاليم :

١.– إقليم ننكرهار ، ومركزه : غنى خيل

٢ – إقليم لغمان ، ومركزه : تيركرو (ميترلام)

٣ – إقليم كونر ، حيث ولد السيد جمال الدين موقظ الشرق ، ومركزه الرئيسى (دم كلى = جغه سراى = أسعد آباد) وعاصمة هذه الأقاليم الثلاثة مدينة جلال آباد الواقعة على شاطئ نهر كابل فى إقليم ننكرهار .

إقليم كونر

تمتد هذه المنطقة من مدينة جلال آباد إلى الشمال الشرق ، محاطة بالجبال والتلال ، ويجرى فيها نهر أشبه بالنيل فى مصر يتجه هادرا إلى إقليم الحدود الشمالية الغربية (بشاور) ، مارا على ممر خيبر باب الهند ، وسكان هذه

المنطقة مسلمون جميعا وعلى مذهب الإمام أبي حنيفة (رحمه الله تعالى) ويطلق عليهم الشعب (البختونى – البشتونى – البتانى – الأفغانى) وهذا الأخير أشهر أسمائهم فى أفغانستان ، والبلاد العربية وإيران . والثانى فى الهند وباكستان والأول فى الشعب البختونى المسلم نفسه .

« الشعب الأفغانى – البختونى – البشتونى – البتانى »

إن الشعب الأفغانى (البختونى – البشتونى – البتانى) شعب عريق فى القدم ، وله تاريخه المجيد ، ويعيش فى وسط آسيا مقسمين جغرافيا إلى ثلاث وحدات : فقسم منها يعيش فى أفغانستان ، والقسم الثانى فى مقاطعة بلوجستان ،بينما يعيش القسم الثالث فى إقليم الحدود الشمالية الغربية الباكستانية (بشاور) ، وفى المناطق العشائرية الحرة ، وهى فى الوقت الحاضر نقطة الخلاف بين أفغانستان وباكستان .

الأفغان (البختون – البشتون – البتان) الذين نشأ فيهم السيد جمال الدين الأفغانى أمة باسلة ، وأبناء هذه الأمة الباسلة يتكلمون بلغة البختو أو البشتو التى تفيض بالحياة ، وهى قادرة على التعبير عن الأفكار بكل لياقة وإتقان وتكتب بالحروف العربية بزيادة بعض الحروف .

الأفغان (البختون – البشتون – البتان) شعب جرىء شجاع ، فخور بأمجاده السالفة ، وقد برز منهم شعراء ،وأدباء ،وزعماء ،ومفكرون ، وعظماء من أمثال : محمد الغورى ، ومحمود الغزنوى ،وشيرشاه السورى ، والملك أمان الله خان ، وخوشحال خان ختك ، وعبد الرحمن بابا ،وأحمد شاه أبدالى ، وجمال الدين الأفغانى ، وعبد الغفار خان ، وحافظ ألبورى ، ومسك العالم وغيرهم من العظماء ، والزعماء ، والأبطال ، والعلماء ولم تذعن طبيعتهم الحرة أبدا إلى أى فاتح ، وكانوا على الدوام مصدر قلاقل ، وإتعاب لهؤلاء الذين حاولوا احتلال بلادهم ، وقد حاربوا الإنجليز طيلة مدة احتلالهم لأجزاء من بلادهم .

وقد كان الزعيم الأفغانى السيد جمال الدين الأفغانى يمثل هذه الأخلاق والعادات بشكل دقيق ، وقد ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى تلك الولاية الشرقية الأفغانية ، التى كانت – ولا تزال – مدخلا رئيسيا للغزوات والهجمات الأفغانية على الهند ، والإنجليز مدة احتلالهم لها كغزوات السلطان

محمود الغزنوى ، والسلطان محمد الغورى ، ونادر شاه خان ، وكغزوة محمد أكبرخان فى عهد الأفغانى تقريبا ، وكغزوة الملك أمان الله خان فيمابعد . وإنى أذكر هذه الغزوات والحروب التى كانت تنطلق من هذه الولاية الشرقية إلى ما وراء الحدود الأفغانية لأوجه الأفكار والأنظار من أول الأمر إلى الأشياء الكثيرة التى غفلت عنها النفوس ، وتعامت الأبصار ، وتحجرت دونها الضمائر والقلوب ، فلم يعد لها حساب لدى الكتاب ، ولااعتبار عند المؤرخين وهى : أن للبيئة أثرها فى النفوس ، و أن آثار الآباء تظهر فى الأبناء ، وأن الحروب والحوادث تجربة للأبطال والزعماء ، وبطبيعة الحال يوجد الدواء حيث يوجد الداء فها أنا ذا أشير من أول الأمر وأذكر من البداية قائلا : إن السيد الأفغانى من أبناء أفغانستان ، وإنه نشأ فى هذه البيئة الأفغانية ، وقد ظهر فيه آثار آبائه ومن شابه آباه فما ظلم ، وله تجارب فى الحوادث كبطل وزعيم ، وقد كان فعلا دواء لمرض الاستعمار والاحتلال ، ولعلاج مرض السياسة . هاجر وطنه ، فعالج المرض فى الهند ، وإيران ، ومصر ، وتركيا حتى وصل إلى الغرب ليعالج المرض من أصله .

وأخيرا ، إن الأفغان (البختون – البشتون – البتان) من أقوى الناس عزما وتصميما وأشجعهم قلبا وإقداما وأكثرهم كرما ، وسخاء ، والأفغان ينتمون إلى الجنس الآرى الذى زعم هتلر ، وهوستن ، وتشمبرلين ، وروزنيرج أنه أرق أجناس العالم خلقا ، وأسواها جسما ، وألمعها ذكاء ، وأقدرها على الابتكار .

إن أفغانستان بلاد إسلامية حقا ، وهى جديرة بأن يعنى العالم الإسلامى العربى بتعارفها ، وأن يوثق ما بينه وبينها من العلاقات والصلات ، هؤلاء هم الأفغان أمة الأفغانى ، وهذه هى أفغانستان رائدة العلوم الإسلامية فى الشرق ، وداعية السلام فى العالم .

المؤلف

« تمهيد »

دفعني ما يجرى الآن فى الشرق من الحركات الوطنية ، والنهضات الفكرية إلى دراسة الكثير من تاريخ الشرق الحديث ، لأتعرف على بعض الأدوار التى تحرك فيها الشرق ضد الاستعمار والتبعية ، وأتبين مقدارما وصل إليه من تلك الحركات القومية والفكرية ، وكان لزاما على أن أبحث ، وأدرس نهضات الشرق السياسية ، والدينية ، والاجتماعية ، وخاصة النهضة الفكرية ، والبحث عن أسباب النهضة يتطلب البحث عن منشئها ؛ لأنها وليدة تفكير أصحابها من الفلاسفة والمصلحين والزعماء ، وإذا كانت النهضة جديرة بالبحث ، خليقة بالدرس ، فمن الخطأ أن لانحيط علما بتاريخ هؤلاء الأعلام المصلحين من زعماء الشرق ومفكريه .

حقا لقد كان الشرق فى الزمن الغابر منبع القادة والمفكرين ، ومفزع العلماء والفلاسفة وملجأهم حتى القرن الرابع عشر الميلادى وابتداء من هذا القرن أفل نجم الشرق وبدأ نجم الغرب يتلألأ ، ويتقوى فولى وجهه شطر الشرق ونظر إليه نظرة المستعمر المستبد فكان الاستعمار وكان الاستبداد . وهكذا بقى الشرق ردحا من الزمن تحت رحمة المستعمرين المغتصبين الغربيين إلى القرن التاسع عشر الميلادى وفى أثناء هذا القرن أخذ الشرقيون يفكرون فى استرجاع حرياتهم المسلوبة من جديد ، وجرى فى عروق أبناء الشرق ماء النشاط ، وفى شرايينهم دم الحياة ، ولقدظهرت بوادر هذا النشاط وتلك الفعالية فى سائر أنحاء الشرق بأجلى معانيها ، وأقوى صورها حينما نفخ السيد جمال الدين الأفغانى فيهم روح اليقظة والحرية ، وبث فيهم تعاليمه الفكرية الصالحة ، ومبادئة السياسية وإرشاداته الغالية وأفكاره العالية .

ومن هنا علمنا ونعلم أن منشئ النهضات فى الشرق وباعثها وباعث الثورات الإصلاحية فيه هو حجة الشرق وشيخ الإسلام السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى نفخ فى الشرقيين روح العمل ، وأهاب بنفوسهم لتنهض ، وعقولهم لتنشط ، ونادى الجماعات والأمم الشرقية لأن تتطلع إلى الحرية وتتخلص من الاستبداد والطغيان ، ومن ظلم الظالمين المستبدين .

وبحثى هذا ليس بسيرة للأفغانى ولا بتاريخ لعصره ، ولكنه وصف له ،

ودراسة لأطواره الفكرية ، ودلالة على خصائص عظمة أفكاره السياسية ، وجلالة لقدره العلمى الإصلاحى ، وبيان للحقائق الفكرية والسياسية والإصلاحية من مصادرها المعتمدة عليها ، ولايمنعنى مانع أن أقدم إلى تسجيل الأطوار التاريخية لمثل هذا الزعيم الروحى والفيلسوف الإسلامى والمصلح الاجتماعى .

فأين – لولا دعوته الإصلاحية التى بعثت كوامن اليقظة فى أمم الشرق – كنا نسمع بالسيد جمال الدين ؟ وأى موضع كان له من مواضع التاريخ الذى يزخر بتاريخ كبار الأسماء ؟ إنه الآن اسم يقترن بالدول والأمم والشعوب ، فأين كنا نسمع باسم هذا الأفغانى لولا دعوته الإسلامية السمحاء ؟ لقد كان ولا ريب خليقا أن يستوى على مكانة الزعامة الفكرية بين الشرق والغرب .

ومهما يكن الأمر فإن فى الناقمين على الأفغانى من يستطيع أن يمارى فى كونه زعيم الحركة الفكرية ، وفى بطولته للنهضة السياسية والدينية ، ويستطيع أن يضيف أنه أخطأ وأصاب ، ولكنه كان مخلصا فيما يفعل وصريحا فيما يقول ، ومقداما فيما يريد ، وإنه قبل هذا وذاك كان أول من نادى بمطالب شعوب الشرق فى الحرية ، وصار اسمه فى ظرف هام من نهوضها علما على الحرية ، ورمزا للمقاومة ، ومثلا للقومية ، ومرشدا للإصلاح حتى أنه ما استقر به المكان والمقام لأداء رسالته السامية البيضاء ، فكان – رحمه الله – سفير الإسلام المخلص المتجول بين الشرق والغرب .

بهذه الروح كتبت عن الأفغانى وعلى هذا الأساس بينت من سيرته مالم يكن بد من بيانه ، فالإخلاص فى الأبطال والزعماء هو عندى مقياس لبطولتهم العملية والفكريةبل هو فيما أرى أصح المقاييس وأهمها وأصدقها أماالصواب والخطأ وما إليهما فأمور توجد فى الأبطال وفى غير الأبطال .. فى الزعماء وفى غير الزعماء .

وإنى عندما كنت أكتب عن سيرة الأفغانى كانت تقوم فى ذهنى المفتريات والاتهامات الباطلة التى قيلت فى الأفغانى من وهن العقيدة ، والإلحاد ، والزندقة ، ولكن ذلك لم يضعف قط إحساسى وشعورى بأنه كان شديد الإخلاص لأفكاره الحرة ، متوقد الحمية فى دينه ، شديد الأنفة فى قوميته

الإسلامية ، قوى الرغبة فى إنقاذ المسلمين خاصة والشرقيين عامة من الذل والاستعمارومن استبداد المتجبرين ، وجبروت المستبدين ، وليس بضاره بعد ذلك ما يرميه به الزنادقة ، والمبطلون المتخاذلون ، كما أبلى الآلاف غيره من الزعماء المخلصين ، والمصلحين الأفذاذ ، لذلك فقد انتصر الأفغانى فى أفكاره السياسية والدينية والاجتماعية ، ولو لم يحط به من الخيانة فى أصرح صورها وأقبحها ما أحاط به لرأينا له اليوم التماثيل فى عواصم الشرق المختلفة ، وأعلام الحرية المرفرفة على مرقده فى أفغانستان داخل حرم جامعة كابل . وقلت لنفسى وأنا أكتب هذه الدراسة الموجزة : إن كنت قد أفدت شيئا من تاريخ السيد الأفغانى فى سيرته الطيبة وأخباره الصادقة ، وعظاته المؤثرة وكفاحه الطويل فى سبيل تأدية الرسالة الإنسانية ، فلايحرجنك أن تزكى تاريخه وسيرته كلما رأيته أهلا للتزكية والتعديل ، وإن زعم زاعم أنها مغالاة وتجاوز عن المدى ، وأنه لفرط الإعجاب و﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ ، وعلم الله لو وجدت شططا وبعدا عن الحق فى أعماله الكبار ، لكان أحب شىء إلى أن أحصيه إحصاء وأطنب فيه إطنابا ، وأنا ضامن بذلك أن أبحث الحقائق وأجليها ، وأقيم الدلائل والبراهين بعد التدقيق فيها ، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى ، إن هذا الزعيم أصعب من عرفت من زعماء الشرق نقدا ومؤاخذة واتهاما ، ومن مزاياه الصعبة الغريبة أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان فى شأنه ، وهذا هو سر عظمته . بقى علينا أن نتعرف على هذا المصلح الأفغانى الكبير ، وهذا الفذ الإسلامى العظيم .

السيد جمال الدين الأفغانى

(١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ) (١٨٣٩ - ١٨٩٧م)

من الفخر والبهاء أن يتحدث المرء عن زعيم كالسيد جمال الدين الأفغانى ما وسعه الحديث ، فالحديث عن هذا الحكيم الأفغانى والمصلح الإسلامى يشرح الصدر ، ويغمر النفس بالفرح والسرور والإعجاب ، وإننى على عجزى ، وقصر باعى ، أغامر بنفسى فى البحث عن تاريخ أفكار هذا المصلح الكبير ومنهجه الإصلاحى عسانى أظفر ببغيتى وإشباع رغبتى ، وأستطيع أن أرسم صوره حقيقية مصغرة تعطى لقراء هذا البحث فكرة واضحة عن حكيم الشرق ، وعن أفكاره الإصلاحية النبيلة .

إن ترجمة حال السيد الأفغانى تكاد تكون أحدوثة الجميع ، فلا حاجة إلى الإطالة بجميع تفاصيلها .ولا إلى الإحاطة بغررها وحجولها ، قصارى ما فى الأمر أن هناك حوادث وحقائق تاريخية لم تكتب إلى اليوم ، أوكتبت وحققت فى أفغانستان إلا أنها ما وصلت إلى أيدى علماء القطر المصرى ، وأن الروايات تضاربت فى أمرين :

١ - هل هو أفغانى ، مولود بأفغانستان أم فارسى مولود فى إيران ؟

٢ - هل هو فيلسوف إلهى مسلم ، أم فيلسوف مادى معطل ؟

الأمر الأول

وعلى الأمر الأول نقول : إن جميع من عرفوا الأفغانى فى حياته علموا منه أنه من أفغانستان الشرقية ، وأنه من سادات كونر وأشرافها الحسينية المشهورين فى تلك البلاد الأفغانية وأنه مولود بقرية : أسعد آباد ، من قرى

كونر سنة ١٢٥٤هـ ١٨٣٨م ، ولذلك عرفه به كبير تلاميذه ، وزميله فى النفى والاضطهاد ، وفى الجهاد والنضال نابغة مصر الإمام الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى صدر رسالة الرد على الدهريين للسيد الأفغانى ، ثم شرع الشيخ فى ترجمة السيد على الوجه الصحيح الدقيق ، الذى هو أدرى من كل مترجم ومؤرخ غيره ، بمكانه من خلطة السيد الأستاذ ، وما له به من تمام الخبرة ، والمعرفة الكاملة ، ومعه من طولة العشرة العلمية والنضالية ، فذكر مولده فى أسعد آباد ، ومنشأه فى كونر ، ونسبه ، وحسبه الشهير بين الناس فى إقليم كونر الأفغانى .وعلى هذه الرواية الصحيحة اعتمد أكثر الكتاب والمؤرخين ، وإليك أقوال بعض هؤلاء المؤرخين المحققين الأفذاذ على سبيل الاستشهاد لاالحصر :

قال المستر بلنت فى كتابه « التاريخ السرى » ص ٧٧ : « السيد جمال الدين الأفغانى . لم تتجاوز تعاليمه العلمية قبل حضوره إلى مصر دائرة آسيا الوسطى وهوأفغانى المولد ، وتلقى تربيته الدينية فى بخارى » .

وقال المستر شارلز آدمس فى كتابه « التجديد والإسلام » : « ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى أسعد آباد بالقرب من كابل بأفغانستان » .

وقال مؤرخ مصر الحديثة عبد الرحمن الرافعى فى مؤلفه القيم « تاريخ الحركة القومية » عصر إسماعيل ج٢ص ١٥٠ :

« ولد المترجم فى أسعد آباد إحدى القرى التابعة لكونر من أعمال كابل عاصمة أفغانستان » .

وقال السيد الأستاذ والعالم الفاضل محمد رشيد رضا فى كتابه القيم « تاريخ الإمام » ج١ ص٢٧ : « ولد السيد جمال الدين فى أسعد آباد من قرى كنر وانتقل بانتقال أبيه إلى مدينة كابل » .

ورجح أمير البيان شكيب أرسلان فى كتاب « حاضر العالم الإسلامى » أن الأفغانى مولود بأفغانستان .

وقال جرجى زيدان فى كتابه الشهير « مشاهير الشرق » ج٢ ص١٩٩ : « ولد السيد جمال الدين فى أسعد آباد ببيت شرف وعلم ، وهى من قرى

كنر من أعمال كابل » .

ورجح الأستاذ محمد سلام مدكور فى كتابه القيم « جمال الدين الأفغانى باعث النهضة » أنه من أبناء أفغانستان .

وقال الدكتور أحمد أمين فى كتابه « زعماء الإصلاح » ص٦٠ : « أفغانى الأصل ... إلخ » .

وقيل فى مجلة الهلال الصادرة فى أبريل سنة ١٨٩٧ م – ٢٩ شوال سنة ١٣١٤ هـ أنه أفغانى المولد ، والدم .

وقال الكاتب الإسلامى الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه القيم « الإسلام فى القرن العشرين » ص ١٢٢ : إنه ولد بأفغانستان .

أقول فلا أعلم ، كيف تتفق هذه الروايات من أهل تلك الديار ، وهؤلاء المؤرخين على كون السيد جمال الدين الأفغانى أفغانى الأهل والديار ، علويا فى الأصل ، حسينيا فى الفرع ، نسبتهم أو نسبهم فى كونر كالشمس ، ومقامهم فى بلاد الأفغان أشهر من أن ينوه به ، ويكون فى الحقيقة من إيران مولود إما بهمذان وإما بأسعد آباد من قرى إيران ، وإما بمازندران من أعمال إيران ؟ ، الأول أحد أقوال الأستاذ محمد سلام مدكور فى كتابه : « جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق » . والثانى أحد أقوال السيد الأستاذ براون فى كتابه : « الثورة الفارسية » . والثالث أحد أقوال الأستاذ مصطفى عبد الرازق فى صدر « العروة الوثقى » .

وأضيف إلى مامضى ما يأتى ، قائلا : إن رجلا كالسيد الأفغانى يستطيع أن يقول أمام السلطان عبد الحميد التركى عندما طلب منه ترك مهاجمة الشاه : « إنى لأجلك عفوت » ويعلق أمام الناس على ذلك القول الذى منع فيه من اللعب بسبحته عند السلطان بقوله : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة أفلا يجوز لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟ ! » وأن يقول أمام الخديوى توفيق أمير مصر وقتئذ :« .... وأسرعتم فى حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة تسن القوانين باسمكم ،

وإرادتكم ، يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم » . ويستطيع أن يأخذ شر الانتقام من شاه العجم (إيران) ويقول بعد أن قتل الشاه : « خذه من يد جمال الدين » . إن رجلا هذه شجاعته وتلك أقواله ، فمن دون ريب أنه يستطيع أن يقول أمام الناس : إنه من بلدة كذا ، وهولايبالى بالشيعية ولا يهتم بالتشيع ، ولابالرقابة الإيرانية لرعاياها فى الخارج ، وإنه يعتقد ويؤمن أن ليس هناك بين شعوب الدول الإسلامية فرق فى العقيدة إلا أن بعض تجار الدين الجامدين يفرقون بين السنيين والشيعة لأغراضهم الشخصية .

تمسك الإيرانيون بأن السيد جمال الدين الأفغانى كان إيرانيا ، إلا أنه انتسب إلى الأفغان ليظهر بمظهر السنى لا الشيعى ، ويتخلص من رقابة الحكومة الإيرانية لرعاياها فى الخارج ، ومن الحماية الفارسية التى كانت تشك فى قيمها فى ذلك الوقت ، وليسهل حشره فى زمرة المسلمين من السنيين . والسيد جمال الدين يقول عن مولده ومنشأه بنفسه : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفنى الأفغان وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار والروابط فجزيرة العرب ...« زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » للدكتور أحمد أمين . فهل هناك بعد هذا موضع للشك أو التردد فى مسقط رأسه ؟ !

كلا ، إن السيد الأفغانى قد بين لنا مولده فلا يهمنا بعد هذا ما يقوله الإيرانيون بل بعضهم أو بعض المؤرخين . وأخيرا أقول : إننى عاشرت وعشت فى منطقة كنر ، واتصلت بكثير من عشيرة السيد الأفغانى الوافرة العدد ، وهى ذات سيادة وشهرة ونفوذ فى الحكومة الأفغانية ، وبين الشعب الأفغانى المشار إليهم بالبنان إلى اليوم وعلمت منهم أن فيلسوف الشرق من قرية أسعد آباد . ولو قرأت – أيها القارئ الكريم – المقدمة التى وضعتها لهذا البحث بما فيها من بيان طبيعة البيئة والجو وتأثيره فى نشأة الإنسان ، وما فيها من بيان الأخلاق ، والعادات والسلوكيات والتقاليد وطابقتها على أخلاق السيد الأفغانية الحميدة ، وعاداته الإسلامية الكريمة ، لوصلت إلى النتيجة المطلوبة (وهى أن السيد من الأفغان) بكل سهولة وبساطة وبدون أى دليل أو برهان آخر

تحتاج إلى سماعه ،فالأفغانيون جميعا كما هو معروف يجتمعون فى الشجاعة ويتصفون بالصراحة وهذه أشياء لاتخفى على من قرأ شيئا من سيرة الأفغانى ، فشخصية الأفغانى وصراحته فى القول وشجاعته فى الإقدام وطبيعته الحرة دليل على كونه أفغانيا ، وكفى .

فالحق أن الأفغانى هو أفغانى ؛ الإسلام دينه ، والقرآن دستوره الخالد ، والحنفية مذهبه المختار ، والأفغانية لغته الأصلية ، والأفغان قومه المقربون ، وأفغانستان الشرقية مسقط رأسه ، وكونر منبته والشرقية طابعه العام ، والشرقيون أمته الكبرى ، والشرق وطنه الأكبر ، مبدأه تخليص هذا الوطن من الاستعمار والاستبداد ومن الظلم والطغيان ، وعقيدته العمل الجاد المستمر ، والجهاد المتواصل للنهوض بشعبه الشرق ، والسير الصحيح نحو أهدافه المنشودة ، وأغراضه السامية ، وغاياته المحددة المعينة ، وتحريره من نيران بركان الظلم والجبروت الغربى أو الشرق ، كل ذلك فى عزيمة قوية لاتفل ، وثبات لا يتزعزع ، وهمة يعجز الواصف عن وصفها وبيانها ، والأقلام من كتابتها وتحريرها ، والمداد من تسجيلها وتثبيتها ، وأكبر همه أن يرى إحدى الدول الإسلامية أو الشرقية على الأقل تقف فى صف الدول الكبرى الغربية جنبا إلى جنب وقفة ند لند .

مولده ونسبه ونشأته

أفغانى الأصل ، شريف النسب كريم الحسب ، ينتهى إلى الحسن بن على (ولشرف النسب فى البلاد الأفغانية حرمة وإجلال يفوقان ما فى غيرها من الأقطار والبلدان) جمع إلى شرف النسب عزة النفس والسيادة، فقد كان لأهل بيته سيادة على عمل (ولاية) من أعمال الأفغان، ولكن مالنا ولهذا كله فقد تنبت النبتة الطيبة فى الأرض السبخة، والنبتة الفاسدة فى الأرض الصالحة، فإذا نبتت النبتة الصالحة فى الأرض الصالحة اكتفينا بالتسجيل وكفى ذلك فخرا، فأسرة جمال الدين لم تنبت إلا جمال الدين وما أكثرالأسرالتى تشبه أسرته أو تفوقها ومع هذا لم تنبت شيئا، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو على كل شيء قدير.

ولد السيد الأفغانى فى قرية أسعد آباد بمنطقة كنر بأفغانستان الشرقية سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩) م وانتقل بانتقال أبيه وبعض أعمامه إلى مدينة كابل عاصمة أفغانستان وهو فى الثامنة من عمره بسبب أن أسرة الأفغانى كانت تستقل بالحكم والسيادة على منطقة كنر حتى سلب الملك دوست محمد خان منهم الحكم وأمر بانتقال كبراء الأسرة إلى كابل ليكونوا تحت المراقبة خوفا منهم على نظام الحكم فى البلاد وهذا القانون معمول به فى الأفغان إلى الآن وزعماء أسرة الأفغانى أمثال : السيد عباس ، والسيد بابا (مصطفى) باشا ، وغلام رسول باشا وغيرهم يعيشون فى العاصمة الأفغانية ، ولايسمح لهم بالدخول إلى منطقة كنر حتى توفى بعضهم فى العاصمة ودفن فيها .

عنى والده بتربيته فى العاصمة وتثقيفه وتعليمه ، فأيد العناية به قوة فى فطرته ، وإشراق فى قريحتة ، وذكاء فى مدركته فتلقى مبادئ العلوم العربية ، والتاريخ والعلوم الشرعية الإسلامية و العلوم العقلية ، والرياضية ، ونظريات الطب ،والتشريح ، أخذ جميع تلك العلوم والفنون على الطريقة المعروفة فى تلك البلاد عن أساتذة ماهرين . واستكمل الغاية من دروسه وتحصيله العلمى وهو فى الثانية عشرة من سنه وعمره ، وكانت ملامح النجابة والذكاء ظاهرة فيه ، من نعومة أظفاره فبرز فى جميع تلك العلوم وتفوق فيها .

ثم عرض له سفر إلى بلاد الهند وهى تحت سلطان الإنجليز فأقام بها سنة وبضعة أشهر ، ودرس فى أثنائها الرياضة على الطريقة الحديثة ، وتعلم اللغة الإنجليزية ، ثم ساح سياحة طويلة فى الأقطار الإسلامية حتى وصل إلى مكة المكرمة سنة ١٢٧٣هـ ، وأدى فريضة الحج ، فأكسبه ذلك تجارب عملية ومهارة واسعة وخبرة تامة بحياة شعوب الشرق ، وأسس فى مكة المكرمة جمعيةأم القرى وقد أصدرت الجمعية مجلة باسمها ، وقد كانت أول قنبلة يضعها جمال الدين فى وجه بلاد الغرب ، واستعمارها البغيض . ثم عاد إلى أفغانستان مكان إنباته ومسقط رأسه بعد أن ترك فى الحجاز أثرا خالدا ، عاد إليها وهو عالم جليل ، وسياسى كبير وزعيم عظيم ، وكان يجيد اللغات : الأفغانية، والفارسية ، والعربية، والإنجليزية ، وقليلا من اللغة الأردية ، والسنسكريتية

(أم اللغات الشرقية) هى لغة أخذت واشتقت منها جميع اللغات الشرقية من الهندية والبنغالية والبختية والأردية وغيرها من اللغات الشرقية ، ويتكلم بها قليل من الهندوس ، وفى الوقت الحاضرتريد حكومة الهند إحياءها وجعلها لغة رسمية فى الهند .

وتعلم اللغة الفرنسية فيما بعد حينما سافر إلى باريس فى ثلاثة أشهر كما كان قد تعلم اللغة التركية وهو فى تركيا .

عاد السيد الأفغانى إلى بلاده ودخل فى سلك السياسة على عهد الملك دوست محمد خان ولما أعد الملك عدته لفتح هرات فى غرب البلاد أخذ السيد الأفغانى معه ورافقه ، وسار فى جيشه ، ولازمه مدة الحصار إلى أن توفى الملك ، وفتحت المدينة (هرات) بعد معاناة الحصار زمنا طويلا ، وتقلد الإمارة ولى عهدها شير على خان ، وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على إخوته وأن يعتقلهم ، وإن لم يفعل ذلك سعوا بالناس إلى الفتنة والإثارة طلبا بالعرش الأفغانى . وكان فى الجيش الأفغانى من إخوة الأمير ثلاثة وهم : محمد أسلم خان ، ومحمد أمين خان ، ومحمد أعظم خان .فانتصر الأفغانى للأخير منهم . فلما أحسوا بتدبير الأمير أسرعوا بالفرار إلى الولايات التى كان يليها ويتولى كل واحد منهم أمرها من قبل أبيهم دوست محمد خان المتوفى . واشتعلت نيران الحروب الداخلية بين الأمراء الأفغان وبعد مجادلات وحروب عنيفة عظم أمر محمد أعظم خان وتغلب على عاصمة المملكة كابل ، وسمى محمد أفضل خان أخاه الأكبر ملكا على أفغانستان ، ثم أدركه الموت وقام على الإمارة محمد أعظم خان ، وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل رئيس الوزراء وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه فى العظائم ، وما دونها من الأمور والشئون الخاصة بالبلاد الأفغانية وكادت أن تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم خان الذى نجح فى الاستيلاء على العاصمة كابل بتدبير السيد جمال الدين الأفغانى وسياسته الحكيمة لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوى قرابته والسياسيين من حوله الأمر الذى حمله على تفويض مهمات من الأعمال الإدارية العليا إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة الإدارية ،عراة من الحنكة السياسية والتجارب العملية ...

لم يرق إنجلترا صاحبة الصولجان فى الهند على حدود الأفغان هذا النظام الذى صار عليه محمد أعظم خان ، وهذه السلطة الواسعة التى استخدمها فى ترقية جمال الدين الأفغانى ألد أعداء الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية ، فعملت على تعكير الجو من حوله بدس الدسائس ونشر الدعايات ضد محمد أعظم خان ، وحرضت الأمير شير على خان على محاربة أخيه الأمير محمد أعظم وقد أمدته فعلا بالميرة والذخيرة ، والمال والسلاح وبالتأييد والوعد الأكيد حتى انتصر ، وفر أخوه الأمير محمد أعظم خان إلى إيران ومات بعد أشهر فى نيسابور بالقرب من هرات على الحدود ، بقى السيد الأفغانى فى عاصمة أفغانستان كابل يكافح الدسائس ويناضل ، ويكتشف المؤامرات التى تدبر لاغتياله والقضاء على حياته ، وكان عظيما فى محنته صابرا على تحمل المشاق والصعاب ، ثابتا أمام العواصف التى تزعزع صم الجبال ولكنه لم يحد عن طريق الصواب .

نعم لئن كان الأفغانى قد لاقى الأهوال واكتشف المؤامرات الدنيئة وكافح الدسائس فى هذه الفترة التى حمى فيها وطيس الحرب بين الأمراء الأفغان وظهرت فيها مكائد العدو الإنجليزى فإنه قد استفاد من هذه الحروب الخبرة السياسية والحنكة الفنية للتخلص من الدسائس ، والشجاعة مع الجرأة فى الجندية ، فضلا عن كشفه سياسة إنجلترا الشيطانية وأساليب الدس والتفريق التى عرفت بها فى السياسة الدولية . ولقد أثارت تلك الأساليب السياسية ، والألاعيب الشيطانية التى كانت موجهة ضد الحريات فى السياسة الأفغانية ما كان يكنُّه جمال الدين الأفغانى ويضمره فى نفسه ؛ من العداء والكراهية والبغض الشديد للاستعمار ودوله الاستعمارية الغربية ، فأخذ يبث فى الشعب الأفغانى مبادئ الوطنية الأفغانية ، وروح الحرية الإسلامية ، مما ألَّبَ عليه الأمير شير على خان الذى كان يضمر له العداوة والكراهية من حين تولى الإمارة فى البلاد الأفغانية ، إلا أنه كان لايحب الظهوربها لمكانة جمال الدين الأفغانى فى نفوس الناس من الشعب الأفغانى مخافة هياج العامة ضده إن هو عبر عن هذه العداوة علنا فاحتال للغدر به والتخلص منه بأى ثمن .

لما شعر السيد الأفغانى بما يدبر له فى الخفاء ومن وراء الكواليس استأذن الأمير للحج ليتخلص من يده وسلطانه وبطشه ، ولينطلق بدعوته فى ميدان أوسع ، وفى عالم أرحب ، بعيدا عن الدسائس الإنجليزية والروسية المكبلة للحريات فى بلاد الأفغان ،فأذن له بشرط أن لايمر بإيران خشية اتصاله بالأمير محمد أعظم خان الأمير الأفغانى السابق الذى قرب جمال الدين وعطف عليه وقلده منصب كبير الوزراء ، ولم يكن ينفذ أمرا إلا بمشورته. كما قدمنا (وكان لم يمت بعد)

هذه كلمة موجزة جدا تعطيك صورة حقيقية مصغرة عن حياة الزعيم جمال الدين الأفغانى وسيرته فى أفغانستان ، وعن الحروب الداخليةالدامية التى لاقى الأفغانى فيها من الأهوال ما لاقاه ، ولم يستطع أحدمن الأمراء أن يناله بأذى أو يمسه بشر وقبل أن نختم هذا الفصل لابد أن نشير إلى موقف الأفغانى فى الحروب والسياسة ، وأن نذكر العوامل التى أدت إلى هذا التطور الفكرى والسياسى ، وإلى إثارة السيد جمال الدين على الغرب الاستعمارى .

موقفه فى الحروب والسياسة :

أما موقفه فى الحرب فكان عظيما مشرفا حيث كانت لآرائه الصائبة ، وسائر أعماله ومواهبه القيادية ، نتائج طيبة ومؤثرة مما أيقظ فى المقاتلين الأفغان روح الوطنية وشعور العزة والكرامة والتضحية والفداء فى فتح هرات فى غرب أفغانستان ، فضلا عن اشتراكه فيها بالفعل والعمل ، وبذل فيها قصارى جهده فى تحقيق الأهداف التى لأجلها قامت تلك الحروب فى بلاد الأفغان .

وكان يغذى الشعب الأفغانى بأفكاره السياسية ، وآرائه الحصيفة الصائبة ، ويغرس فيه مبادئ الحرية ، وبذور الوطنية ، ويحضهم على الثورة والهياج ضد الاستعمار ويستنهضه للمطالبة بحقوقه ، وقد هزت تلك الأفكار والنصائح النفوس ، واستنهضت الهمم والمشاعر ، وقد ظهرت نتيجة تلك الأفكار على يد الملك أمان الله خان الذى استقلت أفغانستان فى عهده . وقد كان هذا الزعيم المصلح مضحيا بجاهه ، ومنصبه وراحته فى سبيل المحافظة على حقوق البلاد والعباد ، فنبه أمته إلى الأخطار التى تلحقها إذا هى نامت واستكانت للغاصبين الخائنين والمستبدين والطغاة والمتجبرين .

وأما العوامل التى أدت إلى التطور الفكرى والثورة السياسية نجملها فيما يأتى :

أولا : نشأ حكيم الإسلام السيد جمال الدين الأفغانى فى عاصمة أمة عزيزة النفس ، شديدة البأس ، قوية الإرادة ، تعشق الحرية ، لم تذل لحاكم ولا لأجنبى ولم تركع ولم تخضع لأحد ، نشأ فى دولة كان الأفغانى ذا مقام كبير ومنزلة عظيمة فى بيت إمارتها ، وركنا بارزا من أركان الزعامة الوطنية لأحد الوارثين للحكم والسلطة فيها وهو الأمير محمد أعظم خان الذى كان السيد الأفغانى – أخيرا – رئيسا لوزرائه ، وكبير أمنائه وأصفيائه .

ولقد كان لأسرة جمال الدين مقام عظيم ودور كبير فى السياسة والسيادة والإمارة ، وفى الحياة الاجتماعية والعلمية ، إذ استقلت بالإمارة على جزء من البلاد الأفغانية – وهى منطقة أو ولاية : كنر التى أسلفت ذكرها فى المقدمة – مدة طويلة حتى انتزعها منها الأمير دوست محمد خان ومن هنا رأينا السيدجمال الدين آبى النفس ، شامخ الأنف ، عالى الهمة ، قوى الإرادة ، شديد البطش ، جرىء الإقدام على الأعداء والخصوم ، طموح لتكميل مقصده السياسى وهدفه الدينى ، وفكره الإصلاحى ، وكان السيد جمال الدين يرى أن الإسلام سياسة رشيدة ودين عام وخالد للجميع فى كل زمان ومكان .

ثانيا : وليس بغريب أن نقول : إنه برز فى الفنون الحربية ، والعسكرية والقتالية إلى جانب بروزه فى ميادين الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية ، وقد قال عنه المستر جورج كوتشى :

« إن جمال الدين قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه النادر ، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون العسكرية » ويؤكد هذا ما كان لجمال الدين الأفغانى من السياسة الحربية والعسكرية فى واقعة هرات التى ظهرت فيها مواهبه فى القتال لما أعد الأمير دوست محمد خان عدته لفتح هرات وقد ظفر الأميرعلى أعدائه وخصومه بتدابير وآراء الأفغانى الحربية والعسكرية الناضجة ، وكان موقف السيد الأفغانى فى تلك الحروب الاستعمارية الدامية التى كانت تشتعل نارها وأوارها ولهيبها بين الأفغانيين والإنجليز ، أو بين الأفغانيين بعضهم بعضا بسبب الدسائس والحيل الإنجليزية ، ومكائدهم الاستعمارية ، وقد استفاد الزعيم الأفغانى من تلك الحروب الخبرة والثقافة

السياسية بتوقد ذهنه ، وكان موقفه فيها موقف قائد عسكرى عظيم ، ورجل سياسى كبير ، فأجمع الأفغانى بين االسياسة العسكرية والسياسة الثقافية ، والمدنية إلى جانب علومه وفنونه الجمة ، فعظم أمر الأفغانى فى جميع الفرق والطوائف من العلماء ، والسياسيين ؛ من المدنيين والجنود أو العسكريين سواء بسواء ، وكان ينفخ فيهم جميعا روح الجد ، والحرية والعمل الجاد ، والكراهية للاستعمار ، ويدعو إلى الجهاد ضد المستعمرين ، لما رأى السيد الأفغانى بعينيه مكر الاستعمار وخداعته فى الحرب التى دارت فوق الأرض الأفغانية ومضى ذكرها آنفا ، فكان لهذا كله أثر كبير فى أنه بدأ يفكر فى التخلص من الاستعمار بجميع الوسائل الممكنة لتعود إلى أبناء الشعوب الشرقية حريتهم واستقلالهم وليتمتعوا بخيراتهم فى أوطانهم .

ثالثا : على أن السيد الأفغانى فى وقت سفره وأثناء إقامته فى الهند كان ينتهز الفرص التى تمكنه من الانتقال إلى مدن الهندالمختلفة ، وإلى البلاد العربية ؛ متعرفا أحوالها وما حدث فيها من التغيرات ، مستطلعا أخبارها وما صار فيها من التحولات ، إذ كان – رحمه الله – يحب الاستطلاع على أحوال الأمم والشعوب ،والجماعات ، ولذلك درس أخلاق الشعوب ، مما أكسبه خبرة فيما بعد بأحوال الأمم والشعوب الهندية والعربية . ففهم رسالته فهما دقيقا ، وما تتطلب من جهاد ونضال وكفاح وما تقتضيه من أعباءومسئوليات ومتطلبات، فلم يرتبط من أجل ذلك بأسرة ، ولم يستبعده مال عن أداء رسالته على أكمل وجه ، وعاش لأفكاره ومبادئه وآرائه الإصلاحية ، وأعد نفسه للنفى والطرد والتشريد وتحمل المشاق فى كل لحظة ، فنافيه لايتعبه إلاشخصه ونفسه . أفكاره فى رأسه ، وآلامه فى قلبه . وطموحاته لاتفارقه ، وقد لاقت من نفسه صداها ، وهواها .

رابعا : (وهو الأهم) إن الأمم والشعوب الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية والفكرية والاجتماعية ، إلى الزعيم الكبير ، والفيلسوف الشهير ، والمصلح العظيم ، السيد جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق . ظل الشرق قرونا وأجيالا عديدة رازحا نائما تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ،

والاستعباد السياسى والنهب الاقتصادى ، وبقى فى سبات عميق وغفلة مدمرة ،إلى أن قيض الله له الحكيم الأفغانى السيد جمال الدين ، فنفخ فيه روح اليقظة والحياة وبث فيه نيران الوطنية والحماسة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتتحرك ، وتزيل عن العيون عماية الجهل ، وبالعقول أن تستيقظ ، وتتحرر من قيود الأوهام والأباطيل التى قعدت بالشرق عن السير فى طريق التقدم فى مضمار الرقى ، والتحرر من الاستعمار ، وبالأقوام أن تتطلع إلى الحرية والمساواة والمطالبة بالحقوق ، وإصلاح النفوس وتطهيرها من الفساد والسمو بها إلى مدارج الفلاح والإصلاح ، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث النهضة الحديثة ، وكان هذا كله ضد الاستعمار الإنجليزى فى الشرق بأثره إسلاميه وغير إسلاميه ، وضد الشاه المستبد فى إيران ، وعبد الحميد التركى فى الترك ، وضد كل مستبد فى كل مكان ، فاهتزت أركان الاستعمار والاستبداد والطغيان لهذه الصيحة المدوية التى أطلقها الأفغانى ، وتركت أثرها فى الأمم والشعوب الشرقية .

هذه بعض العوامل أو أهمها التى أدت إلى هذا الانقلاب الفكرى والسياسى والاجتماعى فى الشرق ، وجعلته يثور على الاستعمار الغربى ، ويتمرد على الظلم والجبروت ويتأهب لمناقشة طبائع الاستبداد والطغيان ويبحث عن مكان فسيح واسع لأفكاره الحرة ، ويستوى لها مكانا خصبا كمصر دائرة آسيا الوسطى والبلاد الإفريقية .

وأخيرا أقول وأنشد قبل الانتقال من هذا البحث إلى البحث الثانى من سيرته هذا البيت من الشعر :

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

رحيله إلى الهند والآستانه ومصر

لم يطب السيد جمال الدين الأفغانى نفسا بالمقام فى كابل ، إذ لم تعوده نفسه الرضا بالذل ، والخضوع للاستبداد ، فترك البلاد الأفغانية للأمير شير على خان ذاهبا إلى الهند — مهد ثقافته سنة ١٢٨٥هـ — ١٨٦٩م فقوبل من أهلها بالحفاوة والإكرام ، واستقبل فيها استقبالا باهرا ، إلا أن الحكومة الاستعمارية البريطانية فى الهند لم تسمح له بطول الإقامة فيها ، فلم يقم فى الهند أكثر من شهرين حيث كانت تخشى تأثير هذا المصلح على الهنود فأحاطته برقابة شديدة

لـم تجـد نفعـا ، فأنزلته فى إحدى بواخرها الذاهبة والمتجهـة إلى السويس ، فجـاء إلى مصـر وأقـام بها أربعيـن يوما ، لقيـه فى أثنائها بعض رجال الفكر مـن أمثال محمد عبده ، وتعجل بالسفر منها والتوجـه إلى الآستـانة عاصمـة الخلافة العثمانية ، وهناك عين عضوا فى مجلس المعارف ، فأدى حق الاستقامة فى آرائه ،ونهض جمال الدين الأفغانى كعادته يبث دعوته وينشر آراءه ، فاجتمع حوله خلق كثير ممن آمنوا بفكرته فأثار ذلك حقد الحاقدين فاشتط أعداؤه فى الحملة عليه وجندوا كل قواهم للنيل منه ،فاضطر جمال الدين إلى مغادرة تركيا إلى مصر ثانية .

عاش السيد جمال الدين الأفغانى مهاجرا من بلد إلى بلد ومن دولة إلى دولة ومن قطر إلى قطر ، ولقد طوف فى الأفغان وفارس ، والهند ، والحجاز ، والآستانة ، وأقام فيها وخالط أهلها وعمل لأجلها ، ولعل أخصب زمنه وأنفع أيامه ، وأصلح غرسه ، ما كان فى مصر مدة إقامته بها من أول محرم سنة ١٢٨٨هـ إلى سنة ١٢٩٦هـ .

ثمانى سنين كانت من خير السنين بركة على مصر وعلى العالم الشرقى الذى كان يطل عليه من عاصمته القاهرة .

وحينما يذهب إلى بلد يلحق به حساده وحاقدوه ، ويكيد له خصومه وأعداؤه ، ففى أفغانستان أبت نفسه الحياة فى جو ملىء بالدسائس الإنجليزية ، ومكائدها الاستعمارية وبالصراعات والحروب التى أثارتها بريطانيا للوقيعة بين الأمراء الأفغان ، وفى الهند وقفت له إنجلترا بالمرصاد فى كل مكان ، تراقب حركاته وسكناته ، وترسل حوله العيون والجواسيس حتى كادوا يحصون عليه أنفاسه ، و لم تلبث أن نفته إلى مصر ، وفى إيران الدولة الإسلامية ماراعى السيد الأفغانى وما شاهد إلا خمسمائة جندى مسلحين يهجمون عليه فى بيت السيد عبد العظيم أحد أتباعه ومريديه ، غير مبالين بما كان من مرضه مرضا شديدا وينفونه إلى العراق ؛ ذلك لأنه كان يدعو إلى إصلاح الفساد فى البلاد وأمام الشاه نفسه ، وفى الآستانة بتركيا يجد من رجال الدين الأعداء الألداء الذين أكل الحسد قلوبهم ، وأشعلها بنار الغيظ والحقد والكراهية بما كان يدعو إليه من نبذ البدع والاستسلام للخرافات ،ورغم ذلك آمن الناس بفكره ومبادئه وأخيرا يموت بها مسموما أو موتا طبيعيا بعد أن ظهرت عليه أعراض مرض

عضال لم يشف منه ، ولم تعرف أسبابه .

ألقى السيد جمال الدين الأفغانى محاضرة فى دار الفنون بالآستانة فى رمضان سنة ١٢٨٧ هـ وكان موضوع المحاضرة : « الصناعة » فأنكر مشائخ العلم الرجعيون شيئا من آرائه العلمية الجريئة ، واتصل الأمر بشيخ الإسلام فى تركيا العثمانية – وكان متغيرا على الأفغانى كارها له – فالتمس من الدولة العثمانية إبعاده ونفيه عن الآستانة ، فصدر الأمر له بالجلاء والمغادرة فورا ، ففارقها غير آسف وجاء إلى مصر فى أول محرم ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م (٢٢ مارس)

نشاطه وتأثيره :

فقد كان السيد جمال الدين الأفغانى حكيم الشرق وأستاذ النهضة الإسلامية الفكرية والسياسية ، وأبا لهذه المدرسة التى جاءت بعده ، وترعرعت فى أحضان تلاميذه ومريديه من أمثال أستاذ الشرق محمد عبده ، والكواكبى ، ونديم ، وشكيب ، ورشيد رضا ، وسعد زغلول ، والمغربى .... وهو الرجل الذى أوقد الجذوة الثورية فى الشرق كله . فليس من ثورة من الثورات أو انتفاضة من الانتفاضات التى اندلعت فى العهد الأخير إلا وتتصل من قريب أو بعيد بهذا الثائر الأكبر ، والمصلح العظيم .

أوقد السيد جمال الدين الأفغانى الشرارة الإصلاحية فى الشرق كله ، فى الأفغان ، فى الهند ، فى إيران ، فى تركيا ، فى الحجاز ، والسودان ، والمغرب العربى ، وفى كل بلد وضع فيه قدمه ، ترك جمال الدين الأفغانى أثره فيه ، أما فى مصر فقد استقر فيها ثمانى سنوات من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٩م ، كان عبد الحميد فى الآستانة وكان إسماعيل المبذر فى مصر ، وفى بيئة الأزهر الشريف ، وفى قهوة متاتيا بالقاهرة ، خلق جوا مكهربا من التمرد والثورة على هذه الحياة المضطربة التى كانت تعيشها البلاد الإسلامية آنذاك .

أثر جمال الدين الأفغانى فى الصحافة والثقافة والأدب ، كما أثر فى دراسات الأزهر الشريف ، ولم يكن يكتب كثيرا ولكنه يتحدث كثيرا ، ومثاله فى ذلك مثال سقراط ، يتحدث عن الحكام الظلمة المتجبرين ، وعن شأن الاستبداد وطبائعه وعن التسلط ومضاره ، وعن تطهير النفوس والعقول وما علق بها من التقاليد البالية والخرافات الأسطورية ، كان يتحدث فى أسلوب يملأ النفوس حماسة وإيمانا ، ويملأ القلوب إخلاصا وإقبالا ، ويفتح الآفاق أمام حياة

جديدة ، ومرحلة من النشاط جديدة ، تنتظم شعوب الشرق كله فيها فى ظلال من الحرية ، والضياء ، كان يمزج التصوف بالفلسفة ،وبالفقه والعلوم الدينية عامة ، ويصل الدين بالدنيا ، ويفتح النوافذ والأبواب أمام حرية الفكر والرأى والعقل والاجتهاد فى الحدود التى يحددها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لينطلق منها العقل الإسلامى فى الاستنباط والاجتهاد .

كان نشاطه التعليمى ذا شعبتين : دروس علمية منظمة يلقيها فى بيته فى خان الخليلى بحى الأزهر فى القاهرة . ودروس علمية ثقافية تربوية يلقيها بين زواره فى بيته وداره وفى بيوت العظماء ودورهم حين يرد زيارتهم ، وكذلك فى قهوة البوستة بالقرب من العتبة الخضراء ، وحيثما كان فى المجتمعات ، والاجتماعات العامة والخاصة ، وكان يتسابق إلى دروسه طلاب العلم وعشاق الحرية يغترفون من فيض علمه ، ويجتنون من ثمار فكره .

فأما دروسه فى بيته ، فكان يلقيها على طائفة من مجاورى الأزهر الشريف وطلابه ، وبعض علمائه ، ومفكريه من أمثال محمد عبده ، أكبر وأنشط تلاميذه ، وعبد الكريم سليمان ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وإبراهيم الهلباوى ، ويمتزج فى دروسه ضياء العلم بنيران الوطنية والحماسة التى ليس لها نظير ولا مثيل . وكان أكثر الكتب التى قرأها لهؤلاء الطلاب وأمثالهم كتب منطق اليونان ، وفلسفة الإسلام وعلم تصوف المسلمين ، وعلم هيئة الأجرام السماوية ، وعلم فقه المذاهب الإسلامية ، وعلم أصول فقه الإسلام . قال الشيخ محمد عبده : « إنى كنت مشتغلا بطلب العلوم فبينما أنا حول الرياض أحوم إذ عثرت بآثار العلوم الحقيقية فشغفت بها حبا ، ولكن لم أجد من هى طويته فحرت فى أمرى ، وأخذت أجيل فكرى ، وكلما سألت أجابونى بأن الاشتغال بها حرام . أو قد نهى عنه علماء الكلام ، فتعجبت شدة العجب وغفلة الناقلين أعجب ، وتفكرت فى سبب ذلك فرأيت أن من جهل شيئا عاداه ، ومن أخلد إلى العلا يأباه ، فوجدتهم كمن علق بلسانه ورق العناب فلا يدرى مرارة الحنظل ، ولا حلاوة العسل ، وبينما أنا كذلك إذ أشرقت شمس الحقائق فوضح حالنا بها دقائق الدقائق بوفود حضرة الحكيم الكامل ، والحق القائم أستاذنا جمال الدين الأفغانى لا زال ثمار العلوم جانى ، فرجوناه فى شيء من

ذلك فأجاب والحمد لله على ذلك ، فنلنا بذلك طرائف التحف فأومأ إلينا بكليات هذه جزئياتها ، وأيات هذه بيناتها ، وذلك على فترة من الحكمة فكأنه غيث أرسل لإحياء تلك النعمة وسميتها الواردات فى سر التجليات » وكانت لدروسه تأثير السحر فى نفوس الحاضرين وكانت طريقته فى التدريس أنه يحدد موضوع الدرس فقط من الكتاب ، ثم يفيض فى شرح الموضوع من عنده حتى يحيط به من جميع أطرافه ، وبعد ذلك يقرأ الكتاب فإذا هو واضح ظاهر بين فيه موضع الخطأ والصواب .

وقد جمع حوله فريقا من العلماء والكتاب والخطباء ،ودعاهم إلى تحقيق هذه الغاية الإسلامية والوطنية بالكتابة والخطابة ، وتلقين الدروس والمواعظ فى الأزهر وفى المساجد . « فلا جامعة لقوم لالسان لهم ، ولا لسان لقوم لاآداب لهم ، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم ، ولاتاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها ... »

أما مدرسته الثانية غير النظامية فكانت أكبر أثرا وأعم نفعا ، وهى التى كان يتلقى عليه فيها زواره فى بيته ، وعظماء الرجال عند زيارته لهم فى بيوتهم ، وخاصة المفكرين والمثقفين عند تحلقهم حوله فى قهوة البوستة بالعتبة الخضراء بالقاهرة ،وجمهور الناس عند اجتماعهم به فى المناسبات والاجتماعات والمؤتمرات العامة ، فألهب جمال الدين النفوس وبث فيها روح الوطنية والمعرفة وفى هذه المدرسة تلقى دروسه أمثال : محمود سامى ، وعبد السلام المويلحى ، وأخيه إبراهيم المويلحى ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقانى ، وسعد زغلول ، وعلى مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحاق ، وغيرهم . وفى هذه المدرسة حول الأفغانى الأدب ونقله من حال إلى حال ، ولقد كان الأدب قبل ذلك عبد الأرستقراطية والأرستقراطيين ، لا هم له إلا مدح الملوك ، والأمراء ، والأثرياء ، والتغنى بأفعالهم وصفاتهم وكرمهم وشيمهم مهما بلغ من ظلمهم واستبدادهم ، فأتى الأفغانى فسخر الأدب فى خدمة الشعب المصرى يطالب بحقوقه ويدفع الظلم عنه ويهاجم من اعتدى عليه كائنا من كان ؛ ويبين للناس سوء حالهم ويكشف لهم أساليب الظلم ، ويحرضهم أن يخرجوا من الظلمات إلى النور ، وأن يحطموا قيود العبودية ، وألا يخشوا فى ذلك بأس الحاكم ، وأن

يلحوا فى طلب حقوقهم المغصوبة ، وسعادتهم المسلوبة وحريتهم المنكوبة ، فخرج على الناس أدب جديد ينظر للشعب أكثر مما ينظر إلى الحاكم ،ويدافع عن الشعب أكثر مما يدافع عن الحاكم ، وينشد الحرية ، ويخلع العبودية ، وينفض غبار الذلة ويفيض فى حقوق الناس ، وواجبات الحاكم ، ويجعل من الأديب مشرفا أمينا على الأمراء والحكام لاسائلا يمد يده للأغنياء والأثرياء .
وهذه نعمة جديدة من عند الله لم يعرفها المسلمون منذ عهد الاستبداد . قال الدكتور أحمد أمين فى كتابه « زعماء الإصلاح » :« كان الأدب ظلا لهذا الموقف ، وصورة صادقة لهذا المنظر ، فأدباء مصر أمثال السيد على أبى النصر ، والشيخ على الليثى ، وعبد الله باشا فكرى ، تتصفح آثارهم فماذا ترى ؟ غزلا فى حبيب ، أو رسالة إلى صديق ، أو مدح لأمير ، أو استعطافا له أو اعتذارا إليه ، أو وصف سفينة ، أو شكرا على هدية ، أما مصر وحالة شعبها ، وبؤس قومها ، وظلم حكامها وحقوق الناس ، وواجبات الحكومة ، فلا تعثر منها على شىء ، فلما جاء جمال الدين الأفغانى ، قلب هذا الوضع ، وفتح للناس منافذ للقول ، وسلك فى ذلك مسالك مختلفة ... »

ولقد جرب الأفغانى أن يبذر بذورا فى الأفغان والهند ، وفارس ، والآستانة ، فلم تنبت إلاقليلا ثم جربها فى مصر فأنبتت ، ثم أثمرت ، وأتت أكلها وافرا كثيرا .

كون الأفغانى جماعة فى مصر من الكهول والشبان ، حبب إليهم الكتابة والبيان ورسم لهم خطتها وطريقتها ، وأوحى إليهم بالمعانى والمفاهيم الجديدة التى يكتبونها فى كتاباتهم ، وشجعهم على إنشاء الجرائد والصحف يكتب فيها ، وكان مما كتبه مقالان : الحكومات الشرقية وأنواعها ، وروح البيان فى الإنجليز والأفغان . وكذلك فعل فى توجيه الكتاب وإرشادهم إلى الكتابة فى الوقائع المصرية وأمثالها ، فربى بذلك طائفة من الكتاب والصحفيين تحسن الكتابة ، وتحسن اختيار الموضوعات التى تمس حياة الأمة ومنافعها فى صميمها ؛ كل هذا كانت النواة الأولى فى الشرق أو فى مصر على الأقل للصحافة الشرقية أو المصرية ، ومدرسة الكتاب الذين يعالجون شئون الوطن ، وحالة الشعوب وقضايا الأمم ، وكان هذا أساس النهضة الجديدة التى ظهرت على

يد جمال الدين وشملت شعب مصر كله .

هذا ومسلك آخر سلكه السيد الأفغانى فى مدرسته الشعبية ، وهو أحاديثه الكثيرة المفيدة التى كان ينثرها هنا وهناك ؛ فى القاهرة ، فى المقاهى ، وفى المحافل والاجتماعات ، وفى بيوت الزيارة المتبادلة ، وكان له مذهب فى الكلام يتفق وشهرته : وهو أن يحدث من يفهم ، ومن لا يفهم ، من يستعد ، ومن لايستعد من يلتفت ومن لا يلتفت ، كالسحاب ينزل الغيث فتنتفع به الأرض الصالحة والطيبة ، وتسوء به الأرض الفاسدة والجدباء ولا عيب على السحاب فيما أنزل من ماء المطر ، يقول الشيخ محمد عبده فى ذلك : « كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريديها وغير مريديها ، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريد ، وإن لم يكن من أهله ، وكنت أحسده على ذلك لأننى تؤثر فىَّ حالة المجلس والوقت ، فلا تتوجه نفسى للكلام إلا إذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا » . كان يريد فى درسه النظامى توسيع عقول الطلبة ومداركهم العلمية ، وتفتيح آفاق جديدة فى فهم العالم المحيط بهم ، وتعليم الحرية فى البحث والفحص والدراسة ، وإيجاد شخصيات من الطلبة تبحث وتفحص وتنقد وتحكم وتأمر خالفت النص أو وافقته ، خالفت المعروف المألوف أو وافقته ، ويريد فى درسه العام الشعبى أن يتحرر الشعب من العبودية للحكام ، ويفهموا موقفهم من الحاكم ، وموقف الحاكم منهم ، وأن يستيقظ الراقد منهم من رقدته ، والغافل منهم من غفلته ، ويخاطبهم بقوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم بحجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون من زمن الملوك الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتئنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكومتكم الحيف والجوع ، وتنزل بكم الخسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوام حياتكم – التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم – بالعصا والمقرعة والسوط ،وأنتم صامتون ، فلو كان فى عروقكم كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وبهذه المسكنة ، تناوبتم أيدى الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ... الخ وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة

فى الفلاة ، لاحس ولا صوت . انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثارطيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم ، وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ! اصحوا من سكرتكم ! عيشوا كباقى الأمم أحرارا سعداء ! أو موتوا مأجورين شهداء » وغير ذلك مما من شأنه أن يحرك الماء فيجعله نارا ، ويسيرنسيم الصبافيغادرها إعصارا ، وحاول بشتى الطرق الحماسية أن يجمع الكلمة ويوفق بين النفوس ، ورأى بثاقب فكره أنه ليس فى الإمكان أن يحقق أغراضه الواسعة ، إلا إذا كانت هناك رابطة تربط بين الشعب المصرى ، فبدأت حركة الخواطر تنتشر فى الديار المصرية ، وأخذ القوم يشكون فى حكوماتهم متململين ، ويتطاولون بأعناقهم إلى ما يقول مشرئبين .« ومنذ ذلك الحين طارت شرارة الثورة العرابية » فى مصر كما هو معروف ومعلوم فجمعت كلمتهم على الفكرة التى تقدم بها بعض المجتمعين وهى تأليف هيئة منهم تسمى الحزب الوطنى ، كما ألف من بعض النواب وبعض المجتمعين جمعيات سرية وغير سرية لتنشيط المقاومة ضد الاستعمار ، وعلى لسان هذا الحزب وهذه الجمعيات السرية وغير السرية جرت لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث كلمة أو شعار (مصر للمصريين) التى كانت مبدأ من مبادئهم الوطنية والقومية ، وهو شعار قومى يتقوى ويضعف حسب الأحوال السياسية فى مصر حتى الآن .

وفى أول جلسة لمجلس شورى النواب بعد تأليف الحزب الوطنى ، ذهب أبناء جمال الدين الأفغانى أعضاء الحزب الوطنى ، وأعضاء الجمعيات السرية وغير السرية متذمرين كل التذمر . ذهبوا وفى نفوسهم ثورة كامنة ، وشرارة مستترة وفى هذه الجلسة تقدم نوبار باشا ناظر النظار فى مصر يعرض قرارا وهو « تاريخ الحركة القومية ونظام الحكم فى مصر . عصر إسماعيل ج ٢ ص ٥٩١ » : إبتداء من ٦ يناير سنة ١٧٨١م لا يصير تحصيل أموال ولا إجراء أى أمر يختص بعموم الإدارة إلا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصدق عليه منا ، ومنشور فى الصحيفة الرسمية . إن (قوميسيون) التحقيق الأعلى مكلف بوضع لوائح وقوانين لجميع المواد التى اشتغل فيها وبعد نظرها فى مجلس النظار واستصوابها، ترفع إلينا للتصديق عليها إن دعت الحاجة إلى ذلك... إلخ. وهكذا تأسس حزب وطنى فى مصر يشمل أصحاب جمال الدين الأفغانى ومريديه من قادة الفكر ودعاة الإصلاح، وكان عدد أعضائه ثلاثمائة عضو .

وكان جمال الدين يحثهم على الاتحاد وجمع الكلمة والجهاد فى سبيل رفعة البلاد وخلاص العباد من الاستبداد .

لماذا فضل الإقامة فى مصر ؟

لماذا اختار السيد الأفغانى أو اختيرله الإقامة فى القاهرة ؟ ! اختار السيد الحكيم الإقامة فى مصر ، أو بعبارة أخرى زرع البذور ، وجربها فى القاهرة لأمور عديدة نجملها فيما يأتى :

١ – أدرك الأفغانى الثائر موقع مصر الجغرافى الممتاز ، وإشرافها على الطريق الموصل بين الشرق والغرب ، ولاعتبارها دائرة آسيا ، وعاصمة الدول الإسلامية جمعاء ، وهى ملتقى السياسة الشرقية والغربية ، ولأنها زعيمة الشرق فإذا صلح الزعيم صلح الشعب تبعا له . وشهرتها التاريخية القديمة والحديثة ، واعتدال مناخها وخصوبة تربتها ، ولأنها مهد الثقافة الشرقية ، ولاستعداد أهل مصر للقيام بالنهضة والثورة معا . ومصر لاتخلو من العالم والعامل والثائر إلى جانب قدراتها المادية والبشرية ، ومقوماتها الحضارية والثقافية .

٢ – كما أدرك ما عرف عن أهلها من الوداعة ، ولين الطباع ، وحسن المعاملة ، وما اشتهروا به من حسن المعاشرة وحسن الضيافة . وما كان فيهم من عناصر النهضة الذاتية ، وعوامل التقدم إلى الأمام ، ولاحتياجهم إلى من يوجههم إلى النهضة ، ويمد لهم الطريق إلى الثورة ، فكان الأفغانى يستهدف نشر أفكاره فى مصر لتتفاعل مع واقعها الحضارى والسياسى ، فتتحول إلى النموذج الذى تتجسد فيه حركة اليقظة الوطنية الحديثة ضد الاستعمار الأوروبى .

٣ – وفى الحق إن الظروف التى أحاطت بجمال الدين كانت مساعدة له فالحال فى مصر كما وصفنا من قبل ، والنفوس جزعة من المراقبة الثنائية ونحوها ، وإسماعيل نفسه يشجع نقد التدخل الأجنبى ، وإن لم يشجع نقد شخصيته . فكان الأمر أن البلاد أصبحت مستودع (بنزين) وجمال الدين الأفغانى (عود ثقاب) فلما أشعله اشتعلت البلاد . ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى الأفغان وفارس والآستانة ومن هنا كان انعطافه نحو الجماهير المصرية باعتبارهم أصحاب المصلحة الحقيقية فى الحرية ، وفيهم ضمان

استمرارية الدعوة والوفاء بما لايفى به الأفراد .. لأجل ذلك دعا إلى الديمقراطية والحكم النيابى الصحيح .

٤ - عدم صلاحية بلاد الأفغان لأن تكون مركزا للسياسة الجمالية لبعدها عن المراكز الإسلامية ، وعدم اتصالها بالغرب ، ولأنها لم تصل بعد إلى النضج السياسى والثقافى الذى وصلته مصر فى ذلك الوقت ، ولأنها تقع بين فكى كماشة الاستعمار الأوروبى ، وبين مكايد القيصرية وأطماعها التوسعية .

أراد السيد جمال الدين الأفغانى أن يخلق الرأى العام فى مصر ، وأن يعد العقول والقلوب والنفوس لتواجه الحياة بالثورة، ولتثور على الظلم والطغيان والجبروت ، ولتقف فى وجه الاستبداد ، استبداد إسماعيل فى مصر ، واستبداد الشاه فى إيران ، هذا المستمد من استبداد عبد الحميد خان خليفة المسلمين ، ولتقف فى وجه استعمار إنجليرا للشرق وطغيانها عليه . أراد جمال الدين أن يكسب توفيق إلى صفه ، ولكنه ما كاد أن يتولى الحكم بعد عزل إسماعيل حتى كان الأمر بإخراج الأفغانى ونفيه من مصر هو أول قرار وقعه ، وأبعد الأفغانى من مصر . وطرده منها ، وقد رأى أن بقاء هذا المصلح الكبير لايرضى كبرياءه الفارغة ويقف حائلابينه وبين الحكم الاستبدادى الفردى الذى يريد أن يحكم به مصر والمصريين .

القبض عليه ونفيه إلى الهند :

فى ٢٦ أغسطس ١٨٧٩ قبض عليه وهو فى طريقه إلى داره بحى الأزهر ، كان معه خادمه أبو تراب خان الأفغانى ، ثم اعتقلته السلطات فى أحد أقسام البوليس حتى الصباح ورفضت أن تسمح له بإحضار ثيابه من المنزل ، وفى اليوم التالى وضع فى عربة مقفلة تحت حراسة شديدة مسلحة ، ونقل إلى السويس سرا حيث ركب السفينة إلى منفاه فى الهند . وليس معه مال ولاعتاد إلا نفسه العامرة بقوة الإيمان بالله .

ظهرت بوادر اضطهاد السيد الأفغانى من الحكومة الجديدة ، وتمكنت اليد الأجنبية (الإنجليز) من تحقيق غرضها وهدفها بطرد جمال الدين من مصر . ولقد قال المستشرق براون فى كتابه « الثورة الفارسية » : « إن الحكومة البريطانية رابها نشاط جمال الدين السياسى فحملت الخديوى الشاب على تخليص البلاد من ذلك المهيج الخطير »

وقال الشيخ محمد عبده فى صدر مقدمة « الرد على الدهريين » للأفغانى : « إلا أن بعض المفسدين ومنهم المستر « فيفيان » قنصل إنجلترا سعى ضده لدى الخديوى ونقل عنه ما الله يعلم أنه برىء منه حتى غير قلب الخديوى عليه فأمر بإخراجه » .

كما جاء فى كتاب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى « عصر إسماعيل ج ٢ » : « ولكن توفيق لم يف بعهده بعد أن تولى الحكم فقد بدا عليه الانحراف عن الشورى ، واستمع لوشايات رسل الاستعمار الأوروبى وفى مقدمتهم قنصل إنكلترا العام فى مصر ، إذ كانوا ينقمون منه روح الثورة ، والدعوة إلى الحرية والدستور ، فغيروا عليه قلب الخديوى ، وأوعزوا إليه بإخراجه »

وكذلك قال الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مقدمته على « العروة الوثقى » : « أمر الخديوى بإخراجه هو وخادمه أبى تراب ؛ لأن مساعيه السياسية أوغرت عليه صدر المستر « فيفان » قنصل إنكلترا العام ، وتعليمه الفلسفى هيج عليه الجامدين فجاءه الكيد من هنا ومن هناك ! ! »

وإنى أمام هذا الإجماع التاريخى الرائع من المؤرخين الثقاة فى مصر ، ومع معرفتى و معرفة الجميع بسياسة الاستعمار الأوروبى أنه لايرضى لمثل هذه الصيحات الإصلاحية ، والدعوة إلى الدستورية ، وأنه يحارب الإصلاح فى شخص القائمين به ، لا يسعنى إلا أن أؤيد هذا الرأى الصائب بشأن هذا المصلح الكبير .

قال السيد جمال الدين الأفغانى لتلاميذه عند الوداع على الباخرة فى السويس : « إننى خرجت من الديار ، وما ألفت كتابا ولكن تركت لكم أثرا يغنى عن الكتب وهو محمد عبده وكفى به لمصر عالما »

حقا ما ترك السيد الأفغانى فى مصر كتابا مؤلفا ، ولكنه ترك فيها عقولا صائبة جبارة ، ونفوسا أبية ثائرة لاتستقر ، وقلوبا قوية هائجة لاتهدأ ، ورجالا برزوا فى كل ناحية من أنحاء الحياة ، نعم ترك لهم فى مصر إماما له شأنه ، وفيلسوفا له مكانته ، إى وربى ، ترك الشيخ محمد عبده وكفى به عالما لمصر حقا وصدقا .

ترك الأفغانى مدرسة لتربية الزعماء والقادة من أمثال محمد عبده ، وأحمد عرابى ، وسعد زغلول . إن هذا العمل الذى قام به توفيق لم يزد أفكار الأفغانى إلا حدة ، ولا ألسن المصريين إلا جرأة ، ولاالدعوة والإحساس بضرورة الإصلاح إلانموا وظهورا وتطورا .

أبحر السيد الحكيم إلى الهند منفيا من مصر ، ونزل فى ميناء بوشهير وانتقل بعد ذلك إلى حيدر آباد ، واستقربه المقام هناك وحددت إقامته فيها . ولكن تعاليمه وأفكاره لم تغادر أرض مصر الطيبة ، وبذور الوطنية التى بذرها فى مصر لم تمت بل نمت وأثمرت ، وأصبح من المستحيل استئصال جذورها الثورية .

جاء فى « تاريخ محمد عبده » ج ١ ص ٤٨ :

« وذهبوا به إلى منطقة السكة الحديدية حيث أرسل عن طريق الإسماعيلية إلى بورسعيد ، ولما رأى قنصل العجم (سفير إيران) فى ذلك الثغر وكان ماسونيا أن الأفغانى مقبوض عليه سينفى بطريق (جدة) إلى بلاد فارس عرض عليه مائة دينار فأبى . وقال كلمته المشهورة « احفظوا المال فأنتم إليه أحوج ، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب »أما خادمه أبو تراب الأفغانى فسجن فى مصر زمنا ثم أطلق سراحه فأتى بيروت » .

أصر جمال الدين أو أرغم على ترك السياسة ، وعدم الاشتغال بها فاعتكف على الدراسة العلمية ووضع رسالة « الرد على الدهريين » الذى دعاه إلى تصنيفها حمية جاشت بنفسه عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فى الغى جماعة من سكان تلك البلاد ، إغراء لهم بنبذ الأديان وحل عقود الإيمان كما يقول محمد عبده .

وقد نقل الإمام الشيخ محمد عبده هذه الرسالة من الفارسية إلى العربية وقد بدأ ترجمتها أيام أن كان منفيا فى باريس ، وكان يعمل مع الأفغانى فى إصدار « العروة الوثقى » وطبعت فى بيروت سنة ١٨٨٦م بعد مرور أربع سنوات على الثورة العرابية .

زار الأفغانى الهند ثلاث مرات ؛ المرة الأولى للدراسة وتلقى العلم ، والمرة الثانية بعد هزيمة الأمير محمد أعظم خان ، وانتصار الأميرشيرعلى خان ، والمرة الثالثة جاء إليها مبعدا عن مصر ، وقد ألف فيها رسالته « الرد على الدهريين » ، وترجمها الشيخ محمد عبده فيما بعد بمساعدة عارف أبو تراب .

كان بود الأفغانى ألا يشتغل بالسياسة مرة أخرى بعد هذا الاضطهاد والنفى والإبعاد . لكن كيف له أن يبتعد عن السياسة وقد امتزجت به دما ولحما ، فلم تنقطع عنه الرسائل من مصر ، ولم يقطع هومن جانبه رسائله إلى أصدقائه

وتلاميذه فى مصر مستفسرا عن أحوالها وأحوالهم ، حتى قامت الثورة العرابية فى مصر سنة ١٨٨٢م ، فلم يسع الأفغانى إلا أن يشارك مصر فى ثورتها ، فحرض مسلمى الهند على القيام بثورة داخلية بقصد إشغال إنجلترا عن ثورة مصر خدمة لإخوانهم المصريين .

ولكن عندما فوجئ الإنجليز بهذا الذى قام به المسلمون فى الهند شعروا بخطر الأفغانى فأبعدوه من حيدرآباد إلى كلكته ؛ كى لايتصل بالمصريين وبغيرهم من المسلمين فى الهند ، وشددوا عليه الرقابة ، وأحاطوه بالجواسيس ، وأقام هناك مخفورا مراقبا . ثم أفرج عنه وأبيح له الذهاب إلى حيث يشاء بعد أن هدأت الحالة فى مصر بدخول الجيوش الإنجليزية على أثر إخفاق الثورة العرابية .

إلى أوربا :

شخص السيد الحسينى الأفغانى إلى أوربا بعد أن أقام بالهند نحو ثلاث سنوات . فاق مجهوده العلمى فيها السياسى ، حيث وضع رسالته الرد على الدهريين كما مر آنفا ، وغيرها من الرسائل القيمة . وقيل : إنه ألف كتابا عن الخلافة ، كان نصيبه المصادرة .

يقول ولسن فى كتابه « الحركات الحديثة » :

« إن جمال الدين سافر أيام كان فى الهند إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ، ولكنه لم يقم بها »

يقول العلامة غولد سيهير المستشرق المجرى المشهور فى دائرة المعارف الإسلامية : إنه قد زعم ويلفر بلنت (وهو مما لم يذكره غيره من مترجميه) أن جمال الدين الأفغانى ذهب من الهند إلى أمريكا ، وأنه جاء منها إلى لندن سنة ١٨٨٣ .

نحن لانسلم هذه الرواية ، ولقد ذهبت عبثا جميع الجهود التى بذلتها لمعرفة مقر السيد الحسينى فى أمريكا . أوالتأكد من سفره إلى أمريكا كما يقول ولسن فى كتابه المذكور ، إذ ليس من المعقول أن يتنكر الأفغانى لوطنه وجنسيته الأفغانية ، وهو الذى يقول : « إنى أعتقد أن السجن لطلب الحق من الظالمين العتاة رياضة ، والنفى فى ذلك السبيل سياحة ، والقتل شهادة ، وهى أسمى المراتب »

وقال ميشيل فى مقدمة رسالته : « إن رسائل جمال الدين التى لم تنشر والتى أتيح لنا الاطلاع عليها تدل على أنه لم يكن من الممكن أن يقوم بهذه الرحلة » .

وعلى كلٍّ فقد بارح السيد الحسينى بلاد الهند وغادرها فى منتصف سنة ١٨٨٣م ووصل إلى لندن عاصمة أعدائه الإنجليز ، وقد التقى الحكيم الشرقى الإسلامى فى العاصمة الإنجليزية بالحكيم الغربى الإنجليزى هربرت سبنسر وغيره من الفلاسفة والعلماء والساسة الإنجليز .

سافر الأفغانى من لندن بعد أن أقام بها مدة يسيرةإلى باريس ، وفيها بدأ السيد الحسينى حياة جديدة لخدمة الإسلام والمسلمين ، والشرق والشرقيين ، وكتب فى الصحف الفرنسية مقالات وأحاديث زلزلت الحكومات الاستعمارية الغربية ، وقابله هناك الفلاسفة والحكماء ، والعلماء والأدباء ، وأعجبوا به وبعلمه واعترفوا بقوته فى الفكر والبيان والحجة والبرهان .

أنشأ السيد الأفغانى فى باريس جمعية : العروة الوثقى ، لم يمر على إنشاء تلك الجمعية وقت حتى رغبت أن تصدر مجلة تعبر عن أغراضها وغايتها وأهدافها ، فعهدت إلى السيد الأفغانى جمال الدين والإمام المصرى محمد عبده ، وكان الأخير حضر إلى باريس بطلب من أستاذه جمال الدين بعد أن كان يعيش منفيا فى بيروت بلبنان ، فكانت هذه المجلة جامعة بين روح جمال الدين الأفغانى وقلم محمد عبده المصرى ، فجمعت بين قوة المعنى ورصانة اللفظ وبين المضمون الدقيق ، والشكل الجميل . وكان لكتابتها أثرها الفعال فى المسلمين فى العالم لما كانت تدعو إليه من إحياء مجد الإسلام وتراثه الخالد ، والعمل على دفع شأن المسلمين خاصة ، والشرقيين عامة ، فأخذت من قلوب الأمم الإسلامية والشعوب الشرقية مالم يأخذه وعظ الواعظين وإرشاد المرشدين ، فأيقظت الروح الوطنية والنهضة الإسلامية ، وأحيت فيهم شهامة الغرب ، وجد الغربيين فى العمل ، وعزتهم فى الجد والاجتهاد والعمل ، وكان من نتيجة ذلك أن أحس من بيده السيادة والقيادة على الحكومات الهندية والمصرية الخطر الشديد من هذه الجريدة ، فأمر بمنعها من الدخول ، وأصدرت وزارة نوبار باشا فى مصر قرارا بالتشدد فى منعها ، فلما أحست الجريدة شدة المراقبة الاستعمارية ، واستحالة وصولها إلى الأقطار الشرقية ، احتجبت وذلك بعد أن أحدثت انقلابا عظيما فى

الأوساط السياسية فى العالم الإسلامى ووقع خبر مصادرتها واحتجابها على البلاد الشرقية كالصاعقة ، يصم الآذان دويها ، وقوبل عمل إنجلترا بالاستهجان والاستنكار فى جميع الأنحاء من العالم الإسلامى . وقد صدر عددها الأول فى ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٠١ - ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وصدر آخر عدد منها فى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤ فلم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددا .

خفت صوت جريدة « العروة الوثقى » ولكن لم يخفت تأثيرها الخالد ، وبعد أن صودرت أعدادها واحتجبت ، رحل الإمام محمد عبده إلى سوريا .
وسافر السيد الأفغانى سنة ١٨٨٦ بدعوة من الشاه إلى البلاد الإيرانية ، والتقى فى أصفهان بالأمير ظل السلطان فلاقى منه إكراما زائدا ، واستقبله استقبالا رائعا ، وهو فى طريقه إلى طهران ، حتى إذا ما وصل إليها استقبله الشاه أحسن استقبال كما استقبله العلماء والأمراء ورجال الأدب والسياسة استقبالا باهرا وأشادوا بفضله وعلمه وكفاحه ونضاله ، وعينه الشاه وزيرا للحربية على أن يرقيه بعد قليل إلى منصب الصدارة (رياسة الوزارة) ولكن لم يلبث أن يقيم هناكَ فى طهران حتى تنكر له الشاه ، وأحس خطره فترك جمال الدين الأفغانى بلاده .

سافر السيد الأفغانى بإذن من الشاه وبموافقته الملكية إلى روسيا سنة ١٨٨٦م ونزل بموسكو ، فلاقاه أهلها بالترحاب والإكرام ، ثم شخص منها إلى سان بطرسبرج عاصمة روسيا وأقام بها ثلاث سنوات ، وكان موضعا لإكرام القيصر والعلماء ورجالات السياسة والأدب ، وتقدم إليه رجال الصحافة طالبين منه أن يكتب لهم ، فكان لمقالاته وأحاديثه الصحفية عن سياسة أفغانستان ، وإيران ، ومصر ، وتركيا ، وبريطانيا ، وعن البلاد الشرقية عامة أثر عميق فى الدوائر السياسية هناك . واستأذن من القيصر فى طباعة المصحف الشريف لمسلمى روسيا فأذن له بذلك . وأقنع القيصر بحسن معاملة المسلمين فى بلاده .

وعاد جمال الدين الأفغانى من روسيا إلى باريس العاصمة الفرنسية ؛ ليشاهد المعرض فيها سنة ١٨٨٩م وكان قد سبقه الشاه إلى العاصمة الفرنسية لنفس

الغرض ، فالتقيا فى ميونخ وعرض عليه العودة إلى فارس فعاد . ولم يقم طويلا هذه المرة أيضا ، فإنه كاد أن يعمل فى سبيل تنظيم الحكم النيابى فى البلاد ، حتى دس للسلطان مدى الخطر الذى ينتظره من هذا الإصلاح السياسى والنيابى فى البلاد الفارسية .

وفسد الجو وتكهرب بين شاه العقول والأفكار جمال الدين الأفغانى وبين شاه إيران ، فخرج الأفغانى إلى مقام الشيخ عبد العظيم ، على نحو عشرين كيلو مترا من طهران . حيث اتخذه الشيخ الأفغانى مكانا لبث دعوته وقد اجتمع له قوم كثيرون من العلماء والوزراء وطلاب العلم والمريدين . وتحرج مركز الشاه وضعف موقفه ، وفجأة ! خمسمائة فارس من الجنود المسلحين يهجمون عليه وهو مريض ، ويسحبونه على الثلج إلى دار الحكومة وهو مريض ، ثم يضعون فيه السلاسل حيث يذهبون به ويطردونه إلى البصرة بالعراق .

ومضى الأفغانى يشهر بالشاه ، ويحرض عليه ويهيج فى كل مكان ينزل فيه ، وسافر من العراق إلى لندن وأسس هناك مجلة شهرية يصدرها باللغتين العربية والإنجليزية أسماها « ضياء الخافقين » ملأ صفحاتها بما كان يكتبه فى أحوال إيران ومصر ، وكان يطعن فى الشاه ووزيره أشد الطعن ، ويوجه إليهما نقده البناء ، والانتقاد الموضوعى الهادف .

لم تطل مدة إقامة جمال الدين الأفغانى فى لندن فى المرة الثانية ؛ إذ ورد عليه خطاب من (المابين الهمايونى) بواسطة سفير تركيا فى لندن يدعوه فيه بالتوجه إلى الآستانة ، فاعتذر الأفغانى من الذهاب إليها ، فتعددت عليه الكتب والرسائل الملحة وشددوا فيها الدعوة إلى الآستانة وبالغوا فى الرجاء والإلحاح ، فأجاب الأفغانى بشرط أن يعود إلى لندن بعد هذه الزيارة للعاصمة العثمانية .

فى الآستانة ووفاته فيها :

غادر محمد جمال الدين الأفغانى الحسينى لندن إلى الآستانة سنة ١٨٩٢م ، وكان فى نيته أن لايستغرق مقامه هناك أكثر من أيام ليعود إلى جريدته فى العاصمة البريطانية ، وصل الآستانة فاستقبله عدد كبير من العلماء والعظماء استقبالا رائعا واستقبله أصدقاؤه ومريدوه استقبالا حسنا ولاقى من السلطان التركى العثمانى عطفا ساميا ، ووعده بتنفيذ آرائه فى الإصلاح والاستصلاح

والقضاء على الفساد ، وإزالة الظلم عن البلاد والعباد ، وقد أحس أن ينضم إلى تركيا الفتاة ، ولكنه ما يكاد يصل إلى القسطنطينية حتى أحس أنه دخل سجنا أسواره من الذهب والفضة والسراب .

وقد عاش جمال الدين فعلا حياة رضية منعمة بالرفاهية السلطانية ، ولكنه أحس منذ اللحظة الأولى التى نزل فيها العاصمة العثمانية أن خططه الإصلاحية والفكرية جميعا قد وئدت فى التراب العثمانى ، وأن آماله وأمانيه الطموحة فى الإصلاح قد تبخرت وتلاشت فى الهواء ، وكان جمال الدين يطمع فى أن يعمل مع عبدالحميد خان خليفة المسلمين على إنشاء الجامعة الإسلامية ، وإحياء المجد والتراث الإسلامى بالنهضة الإسلامية الشاملة ، ولهذا الغرض ولتحقيق هذا الهدف السامى عزم على البقاء فى الآستانة ، ولم يستطع الخليفة أن يغريه بالمناصب العالية فى الدولة والخلافة العثمانية . ولكن لم يلبث الشيخ أبو الهدى الصيادى أن وقف له موقف الخصومة والعداوة والكراهية ، وأحاطه بالمؤامرات والدسائس والأخبار عند مولاه السلطان العثمانى حقدا عليه وحسدا ، وخوفا من أن ينزله من تلك المنزلة الرفيعة العالية فى البلاط التركى منزلة (شيخ الإسلام) التى هو فيها ، ويتمتع بها ويترفل ويتبختر ، فاندفع يتهم السيد جمال الدين الأفغانى بالكفر والزندقة والإلحاد ، ووهن العقيدة ، ويتهمه بكل الموبقات ويسلب منه كل المحامد والمحاسن والأخلاق الحميدة التى يتمتع بها الأفغانى بين الناس ، فأفسد ما بينه وبين السيد جمال الدين الأفغانى من الود والصفاء وحسن اللقاء والإخاء .

وأمضى الأفغانى أربع سنوات وهو يقاسى ذل الأسر فى ثوب الحرية ومذلة الحياة فى مقبرة الأموات، وكان قد قتل الشاه الفارسى واتهم فى قتله تلاميذ الأفغانى فلما وصل هذا الخبر إلى الخليفة العثمانى عبد الحميد التركى شدد الرقابة والحراسة والحذر على السيد الحسينى الأفغانى وبقى أشهرا على هذه الحال من الحذر الشديد فى بيته ومأواه، محجوبا من الأصدقاء فى سجنه الانفرادى لايخلط ولا يخالط به أحد من الناس، حتى ظهر فى حنكه مرض عضال، قيل: إنه مرض السرطان . وقد أخذ هذا المرض العضال- مرض السرطان- يتزايد عليه ويشتد يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى مات مسموما بعد قطع لسانه بحيلة إجراء

جراحة لإزالة العلة العضالة وسرى السرطان إلى حلقه .

قال محمد سلام ما معناه : لما اشتد المرض عليه أمر السلطان أن تجرى عملية جراحية للسيد الأفغانى على أن يقوم بها كبير جراحى القصر السلطانى « قنبورزاده إسكندر » الذى كان مقربا لدى السلطان ، وكان السلطان يقضى إليه بسريرته ، فأجرى العملية ولكن شاء الله لها عدم النجاح وفى هذه الآونة اشتد عليه المرض ومنع أصدقاؤه من عيادته وزيارته ، فقال بعض الناس : إن العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمدا . وقيل : لم تلحق بالتطهيرات الواجبة عمدا . وقد تحدث « لاون استرروج » إلى شكيب أرسلان بأن الأفغانى دعاه بعد إجراء العملية وأنه رأى حاله وقد ازداد شدة بعد العملية فرجا منه أن يرسل إليه جراحا فرنسيا طاهر الذمة ، فأرسل إليه الدكتور لاردى فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قد هلك بسبب ذلك وعاد إلى استسبراغ ، وأنبأه بهذا الأمر ، وما مضت أيام حتى فارقت روح جمال الدين جسده والله أعلم .

ولقد تحدث أيضا إلى الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - أحد موظفى قصر السلطان بأن قنبورزاده إسكندر كان أطهر من أن يرتكب مثل تلك الدناءة ، ولكن كان هناك رجل عراقى (جارح) طبيب أسنان وكان يتردد على الأفغانى ويعاين أسنانه ، وكانت نظارة الضابطية قد استمالت (جارح) بالدراهم ، فأردت مرة أن أمنع جارحا عن الأفغانى ، ولكن أشار إلىَّ ناظر الضابطية بأن أتركه ، فدخل على الأفغانى ، فلا أعلم ماذا فعل جارح بواسطة طبه وثقة جمال الدين عليه . قصارى ما أعلم أنه لم تمض على قتل الشاه عدة أشهر حتى ظهر السرطان فى فك الأفغانى من الداخل ، وأجريت له العملية فلم تنجح وجارح هذا كان ملازما له . وبعد موت الأفغانى كنانرى جارحا حزينا كئيبا كاسف البال ، واجم الوجه ، مما جعلنا نشتبه أن يكون زايد فى إفساد الجرح بعد العملية ، أو فى توليد المرض نفسه بوسيلة من الوسائل .

أسباب الشك : كيف أصيب بالسرطان ؟ ومن أتى له وهو محجوز فى قصره ؟ ولم قصر إجراء العملية على طبيب السلطان الخاص ؟ ولم منع أصدقاؤه الأطباء العالميون من عيادته ؟ ولم حدث هذا عقب مقتل الشاه فى إيران ؟! كل هذا

كان يجول فى خاطر الناس .

وبالجملة فقد مكث جمال الدين الأفغانى خمس سنوات فى الآستانة بين مظاهر عطف السلطان عبد الحميد ودس رجال القصر السلطانى ، وبغض أبى الهدى الصيادى ، ومات جمال الدين فى قصره مسموما أو غير مسموم ففاضت روحه إلى بارئها تسبح فى ملكوته اللانهائى فى صبيحة يوم الثلاثاء ٩ مارس ١٨٩٧م بعد أن قضى حياته التى وهبها لخدمة الإنسانية ولإعادة مجد الإسلام ورفعة المسلمين : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ .

مات جمال الدين الأفغانى بعد أن بذر بذور الإصلاح ووضع غرسه . مات جمال الدين الأفغانى بعد أن أظهر سياسة الاستعمار وكيد الأجانب .

مات جمال الدين الأفغانى بعد أن خلق فى نفوس المسلمين رجالا يغضبون لكرامتهم .

مات جمال الدين الأفغانى بعد أن أخلد اسمه فى صفحات تاريخ البشر .

مات جمال الدين الأفغانى وكان بوده أن تقوم دولة إسلامية قوية تنقذ المسلمين من يد العدو الغاصب والمحتال الأثيم ، ولكن عاجلته المنية قبل أن يحقق مأربه .

نعم قتل الأفغانى أو مات ، وشيعت جنازته بأقل الناس ؛ لم يسر فيها إلا أفراد معدودون ، غلبتهم الجرأة والوفاء والشجاعة الأدبية ، ودفن فى مقبرة مجهولة كعامة الناس لا كزعيم مصلح ، ومنعت الجرائد والصحف فى الولاية العثمانية من تأبينه ورثائه . وكادت تضيع معالم قبره لولا رجل أمريكى حضر إلى الآستانة سنة ١٩٢٦ وبنى على قبره تركيبة جميلة من الرخام وأحاطها بسور من الحديد وكتب على أحد وجوه التركيبة اسم الأفغانى وتاريخ وفاته وولادته . وفى وجه آخر كتابة باللغة التركية معناها : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين فى أنحاء العالم الخير الأمريكى شارلس كراين سنة ١٩٢٦م» .

وفى سنة ١٩٤٤م قامت الدولة الأفغانية بنقل رفات الفيلسوف إلى أفغانستان وجدد قبره فى مدينة كابل عاصمة أفغانستان .

واستقر به المكان هناك بعد الموت ، داخل حرم جامعة كابل .

اللهم أدخله جناتك الواسعة ، وارحمه برحمتك ، ياأرحم الراحمين ، آمين .

الأمر الثانى :

ونقول على الأمر الثانى : من سنن الكون أن يكون لكل إنسان مادح يحسن الثناء عليه وكادح يبالغ فى ذمه وبيان عيوبه ، على أن العلماء الأجلاء وخاصة المبرزين المتخصصين فى الناحية الدينية هم أكثر الناس أعوانا وحربا من العامة وغير الدينين وأكثر الناس أعداء وكراهية من العلماء ورجال الدين ، وأكثر الخلق تأثيرا وتطرفا فى الحرب والكراهية والعداوة .

أذاع العلماء اختلافا على السيد محمد جمال الدين الأفغانى من ناحية عقيدته وإسلامه ، هل هو فيلسوف إلهى مسلم ؟ ! أم فيلسوف مادى معطل ؟ ! ذكر السيد رشيد رضا فى مقال نشره بمجلة المنار ج ٢ ص ٢٤٥ سنة ١٨٩٩م أن الشيوخ الجامدين أخذوا عليه ثلاثة أمور أساسية : علمه بالفلسفة ، وخروجه من التقيد ببعض العادات الدينية التى أصبحت فى نظر العامة جزءا من الدين ، وعدم تدين الكثير من تلاميذه . ورد على التهمة الأخيرة بقوله : إن منشأ هذا لم يكن اتصالهم بجمال وإنما كان نتيجة لنشأتهم الأولى .

لهذا الاختلاف فى عقيدة الفيلسوف الإسلامى ولرميه بالإلحاد ، والزندقة ، تاريخ طويل ومرير ، فقد رمى به فى الآستانة عند زيارته لها أول مرة — كما ذكرت — إذ خطب فى دار الفنون خطبة ذكر فيها أن المعيشة الإنسانية أشبه شىء ببدن الحى ، وأن كل صناعة بمنزلة العضو ، فالملك كالمخ ، الحدادة كالعضد ، والزراعة كالكبد ،... ولاحياة للجسم إلا بالروح ، وروح المعيشة الإنسانية النبوة والحكمة ، ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة إلهية لاتنالها يد الكاسب ، يختص الله بها من يشاء من عباده ، والله أعلم حيث يجعل رسالاته . أما الحكمة فممايكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات .

فاتهموه بالإلحاد والزندقة لهذا ، وشنعوا عليه بأنه يقول : إن النبوة صناعة ، وشغبوا عليه ، حتى نصح له بالخروج من الآستانة ، فخرج ..

فلما جاء إلى مصر اتهمه بعض العلماء كالشيخ عليش وبعض العامة بالإلحاد ، والإلحاد فى نظر هؤلاء وأمثالهم شىء هين ، يكفى أن لايسير سيرتهم ، ولايلبس لباسهم ، وأن يدخن السيجار ، ويجلس فى المقهى ، وأن يمشى فى الأسواق ، وأن يجلس فى المتنزهات ، وألاينسج على منوالهم ، ويلتف حوله بعض اليهود والنصارى ، ليحكموا عليه بالإلحاد ، ويرموه بالفساد

والخسران . وكما أن عقيدة كل إنسان لها لون خاص فكذلك تصوره للإلحاد يتكيف بذهنه وما فيه من الحقد والحسد ومن العداوة والكراهية ، ومن الضعف والجمود .

ثم لما ترجم سليم عنحورى لجمال الدين الأفغانى فى كتابه : « سحر هاروت » فى شرح قوله :

ترنو إلى بمقلة غضبى إذا بصرت بطود سال كالوديان
فكأننى بيكونسفيلد زمانـه وكأنها من بغضها الأفغانى

رمى الأفغانى بالإلحاد أيضا فقال :

إنه برز فى علم الأديان حتى أفضى به إلى الإلحاد ، والقول بقدم العالم ، زاعما أن الجراثيم الحية المنتشرة فى الفضاء ترق وتتحول إلى ما نراه من أجرام ، وأن القول بوجود محرك أول حكيم وهم نشأ عن ترقى الإنسان فى تعظيم المعبود على حسب ترقيه فى المعقولات ، بمعنى أنه عندما كان همجيا صرفا وساذجا بحتا كان يعبد خسائس الموجودات من مثل الخشب والحجر ، ولما ترقى فى معراجى المدنية والعلم ، رقى بالنسبة عينها معبوداته ، فصار يحترم النار فالسحاب فالأفلاك ، فأجرامها...إلخ.

وقد قابله الشيخ محمد عبده ، وعاتبه على نشره مثل هذا القول من غير تحر وتدقيق ، فكتب سليم فى الجرائد يصحح فيه قوله ، ويقول : إنى قابلت الشيخ محمد عبده فأوضح لى بدلائل ناهضة ، وبراهين داحضة ، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان إلا من آثار الحسد ، وأن الأفغانى كان أثناء مناظراته الجدلية يشرح النحل والبدع ، وأقوال المعطلين شرحا وافيا ، ثم يقيم الحجج على بطلانها فلعل سامعا سمع منه هذا القول فنسبه إليه ، وقال : إنه لم يسمع من الأفغانى هذا الكلام ، وإنما تلقاه من بعض المصريين والسوريين ، ونقل كلاما للأفغانى اطلع عليه فى وجوب الدين ، وضرورة الاعتقاد بالألوهية ومزايا الإسلام ، وختم مقاله بقوله :« إننا سارعنا لإذاعة هذا ، شأن المؤرخ العادل ، وقياما بحق الأدب ، وضنا بفضل هذا الرجل الخير من أن تناله ألسنة من لايعرفونه خطأ وافتراء. والله يتولى الصادقين » .

دفاع الشيخ محمد عبده :

وقد تعرض الشيخ الإمام محمد عبده إلى إدحاض هذه التهمة البطالة أكثر من مرة ،

وعرَّب من الفارسية بمساعدة أبى تراب خان الأفغانى رسالة الرد على الدهريين التى يرد فيها جمال الدين الأفغانى على الملحدة والمعطلة والماديين ، وتقيم العقيدة الإلهية ، على أساطين المنطق وبراهينه ، والحكمة العقلية وحججها الدامغة ، ويثبت صحة الوحى الإلهى ، وينتهى إلى إيضاح البراهين والأدلة المحمدية الصادقة ، كل ذلك بملكة وموهبة قل أن تتاح قوتها لفيلسوف أو لعالم غيره ، ولكن بعض الناس – ولاسيما العلماء الحشيوية – أبوا أن يروا فى الفلاسفة إلا ملحدين ومعطلين ، ومن هذا جاء قولهم العامى : « من تمنطق تزندق » وبمثل هذه المبادئ السخيفة ، والكلمات المحزنة ، أضلوا العوام ووضعوا عقائدهم في خصومة دائمة من الحقائق العلمية ، وجنوا على الإسلام والمسلمين جناية كبرى ظهر أثرها في الانحطاط السياسى ، والاجتماعى والعلمى الذى نراه عليهم الآن ؛ وإذا قام مصلح أو مجدد يتكلم باسم الحكمة والفلسفة والعلوم العالية ، ويحث على النظر فى ملكوت السماوات والأرض ، وينهى عن التقليد الأعمى ، ويبين مضار الجمود والتجمد ، كان أول مايتسرعون إليه رميه بالإلحاد والزندقة ، واتهامه بوهن العقيدة . وقد يصادف هوى فى أفئدة من يميلون إلى التعطيل فعلا فيلقفون ما يسمعونه من هذا القبيل بدون تثبت أو تدقيق ، ويسارعون إلى إذاعته بين الناس بدون تفكير أو روية ؛ لأن من أحب شيئا أحب أن يرى كبار الرجال شركاء له فيه ، ولهذا صدر الإمام محمد عبده رسالة الأفغانى .. « الرد على الدهريين » التى تقدم الكلام عليها بقوله :

« يحملنا على ذكر شيء من سيرة هذا الرجل ما نراه من اختلاف آراء الناس فى أمره ، وتضارب أقوالهم فى حقيقة حاله ، حتى كأنه قوة روحية قامت فى كل ذهن بما يلائمه ، أو حقيقة كلية نزلت فى كل عقل بشكل يشاكله ، والرجل على صفاء جوهره ، وذكاء مخبره لم يتناوله وضع الوضاعين ولا حذر الخراصين ... إلخ »

ثم بدأ ببيان ترجمته فبين بعد الترجمة مذهبه فى الفقه فقال : « إنه حنيفى حنفى ، مع ميله إلى مشرب السادة الصوفية » وذكر عن مذهبه السياسى : «أنه كان جل اجتهاده أن يرى إحدى الدول الإسلامية فى صف كبريات الدول الأوربية».

هذا هو دفاع الإمام عبده ، وذاك دفاع سليم عنحورى ، وكلاهما دفاع مجيد رصين ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ولقد كتب فى الدفاع عنه كثير من العلماء والأدباء الذين لا يحصرهم عد ، ولو تتبعنا ما كتبوه وكتبنا عن كل مقال لطال بنا المقام ، ولاحتاج الأمر إلى مجلدات .

حقا . لقد كان الأفغانى كما قال الشيخ محمد عبده متصوفا يدين بعقيدة المتصوفة وهى مبهمة غامضة تنتهى بوحدة الوجود ، والتعبير عنها قد يلتبس — إلاعلى الخاصة — بالإلحاد ، ومن أجل هذا رمى محيى الدين بن عربى ، وشاه ولى الله الدهلوى ، والإمام الغزالى ومحمد إقبال ، بالكفر والإلحاد والزندقة .

إن حياة السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى مملوءة بالدعوة الحارة الصادقة إلى الدين الإسلامى ، والتوحيد الإلهى ، والإصلاح السياسى والاجتماعى ، فى كتاباته فى الرد على الدهريين وفى العروة الوثقى وفى مجالسه الخاصة والعامة . يذكر بعض خاصته أنه سمع رجلا كبيرا تكلم كلمة فى حق النبى صلى الله عليه و سلم فأمر السيد جمال من معه من الأفغانيين بضربه فضربوه حتى خرج يزحف .

وحكى محمد المخزومى باشا مجلسا شهده ، إذ زار رجل جمال الدين الأفغانى فى بيته فى الآستانة ، وجرى الحديث فقال هذا الرجل : « إنى قرأت كتب الفلاسفة فثبت لى أن الله غير موجود ، ولا يعتقد به إلاحيوان » فضاق صدر الأفغانى ، وشعر بالألم ، ولم يجبه ، ودعا الحاضرين إلى حديقة البيت ، وكان فيها أنواع من الطيور والدجاج فتصايحت الديكة ، وغردت الطيور ،فقال الأفغانى : « كيف لا يفضل أضعف حيوان أعجم يذكر الله إنسانا ناطقا ينكر وجود الله ؟! كيف يجرؤ على إنكار الوجود من يأكله الدود ؟! إذا لم يتعظ الإنسان بما فوقه من أجرام ، فليتعظ بما تحته من رفات الأجسام !» فخرج الرجل الملحد خجلا من غير أن يودع ، ومن غير أن يهتم بخروجه أحدمن الحاضرين .

لايمكن أبدا أن تصدر مثل هذه الكتابات ، وهذه الأقوال ، وهذه الغيرة وذلك الدفاع من ملحد إلاأن يكون قد بلغ الغاية فى التصنع والنفاق والمواراة ، ولم يكن عيب السيد الأفغانى نفاقه ، إنما كان عيبه إفراطه فى صراحته .. صراحة القول والعمل، وعدم استطاعته كتمان ما يعتقد وما يؤمن به، ويقول:

« لايكون الكمال النسبى فى البشرإلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم » ويقول : « أمة تطعن حاكمها سرا وتعبده جهرا لاتستحق الحياة» وأكثر متاعبه فى الحياة كان سببه جهره بما يصح أن يكتم ويستر ، وإعلانه ما يجب أن يسر ويخفى ، فأخلاق مثل هذه تؤكد أنه لو كان السيد الأفغانى ملحدا يرى الحق والخير فى الإلحاد لدعا إليه فى صراحة ووضوح ، وجراءة ، وشجاعة ، من غير مواربة ولاإيماء ، ولمزق ستار التردد فى ذلك بالمجاهرة .

وما قيل فى الحكيم الأفغانى المجدد من الطعن فى عقيدته ودينه له قيمة لايعد شيئا فى جانب ما قاله العلماء فى الإمام أبى الحسن الأشعرى ، والإمام ابن حزم ، وحجة الإسلام الغزالى ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، والإمام أبى حنيفة ، والعلامة الزمخشرى وغيرهم من المصلحين المجددين كالمحدث الكبير شاه ولى الله الدهلوى ، وتلميذيه : محمود الحسن الديوبندى ، وعبيد الله السندى .

عجبا ! ! ! هل يعرف هؤلاء الذين يصفون ويهرفون بما لايعرفون معنى رميهم الناس بالمروق تارة ، وبالإلحاد تارة أخرى ، وبالزندقة تارة ثالثة ؟ ! أم هل درى هؤلاء الخراصون الأفاقون ناشروا الإفك والبهتان والمفتريات أنهم بعملهم وافترائهم هذا يدخلون تحت قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ ٱلْفَاحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ... الآية ؟! وكان من الواجب على هؤلاء الأفاكين أن يعملوا بهذا المبدأ : « لاتهرف بما لاتعرف » .

وإن تعجب فعجب نعت خيرة الرجال فى الإسلام ووصفه بتلك النعوت مثل السيد جمال الدين الأفغانى مع أنه وتلاميذه هم المعروفون وحدهم بالمدافعة عن الدين الإسلامى ، وهم أنفسهم المجتهدون فى ترقية بنيه بتربيتهم تربية صحيحة وهم الذين بنوا النهضة الفكرية فى الشرق . والأفغانى هو الذى أنفق عمره الثمين لينهض بأمته من حضيض الذل والمهانة إلى أوج العز والكرامة ويؤهلها وأهلها للجهاد فى معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الذلة والاستعباد والظلم والاستبداد .فاتهامه إذن بالمروق والإلحاد ليس إلا الدناءة والنذالة ، والغدر والخيانة !

وياللأسف ! إذا اعترض علينا معترض من أهل الملل والشعوب الأخرى قائلا : «إنكم يا معشر المسلمين تتهمون أفضل رجالكم وأعلمهم، وأعقلهم،وأغلاهم

قدرا وأشدهم غيرة على ملتكم بالمروق والدهرية والإلحاد والماسونية ، مع أنهم لا يرون لكم إلا الخير والرقى والسعادة ، فلماذا ؟ الآن دينكم لايجتمع مع العقل والعلم والفضل والأدب والحمية وحسن الخلق ؟ فماذا يكون جوابنا ياترى ! ؟

إذا بحثنا فى تاريخ الرجال الغيورين أصحاب الحمية والأنفة الإسلامية فى الأقطار الشرقية ولاسيما فى القطر المصرى الذين يدأبون على منفعة الإسلام ويخدمون المسلمين والدين الإسلامى خدمة صادقة خالصة ، نجد أنهم من تلامذة جمال الدين الأفغانى ، وأنهم نبغوا بفضل تربيته القويمة وتوجيهاته الصحيحة ، فلو كان الحكيم الأفغانى مارقا من دينه ، وملحدا فى عقيدته – كما يقولون– لما قدر أن يوجد رجالا ممتلئين غيرة على الدين وأهله ، يخدمونه أجل الخدم ؛ لأن فاقد الشيء لايعطيه ، ولاهم لهم – كما نعلم – سوى ترقى الإنسانية والشعوب الإسلامية بكل همة ونشاط ، وبكل تصميم وعزيمة .

فضل الأفغانى وتأثير رسالته :

وإذا أردنا أن نتبين فى كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى تأثير الرسالة التى أداها ، وخدم بها الإنسانية فلنذكر أنه كان فى حياته : مصلحا دينيا ، وفيلسوفا حكيما ، وزعيما سياسيا ، فجمع بين الزعامة الروحية والفكرية ، كما جمع بين الزعامة السياسية والفلسفية والعلمية ، واضطلع بها معا . فأدى من الناحية الدينية مهمة الإصلاح والتجديد التى أدى مثلها مارتان لوثير للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع به إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت إلى تأخر المسلمين ؛ لأن الإنسان المسلم إنما جاء إلى هذه الحياة الدنيا لأداء رسالته السامية ، وهى استحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع بأمانة وإخلاص .

ومن الناحية الفكرية أدى المهمة التى قام بها فى أوربا فلاسفة الفكر ؛ أمثال جان جاك روسو ، ومونتسكيو ، وغيرهما . فعمل على إنارة البصائر والمدارك ، وتوجيه الأفكار والأفهام إلى البحث عن الحقائق والأصول ، وتحرير العقول والقلوب من قيد الجمود المهلك والتقليد الأعمى .

ومن الناحية السياسية استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة ، والكرامة ، والتطلع إلى الحرية والاستقلال ، وغرس بذور الحركات الوطنية فى مختلف البلاد الشرقية ، وقام بمثل العمل الذى اضطلع به زعماء النهضات السياسية فى الغرب ، كواشنطن محرر أمريكا ، ومازينى محرر إيطاليا ، وجاريبلدى ، وكرشوت وغيرهم من الأبطال السياسيين . « من أحب الحياة فليمت فى سبيل حياة أمته » .

وهكذا تعددت الجوانب والملكات والإمكانيات والتضحيات فى شخصية الأفغانى الذى أسهم فى كل قضايا عصره ، بل والقضايا المتعلقة بمستقبل الإنسان ، فالذى يجمع بين هذه المهام الجليلة ، ويضطلع بها معا ، فى عهد اشتد فيه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة والقلوب ، وعز النصير والمعين ، وتشعبت الأهواء والأغراض ، يجب أن يتسامى فى قوة النفس والفكر والوجدان ، إلى مراتب العبقرية ، والسيادة ، والريادة .

ويقيننا أن الأمم الشرقية والشعوب الإسلامية لم تقدر حتى الآن حكيم الشرق حق قدره ، ولا أدت له حقه من الوفاء والكرم ، بل تركت أمره لهؤلاء الشيوخ الجامدين ، العلماء الحشيوية فى عصره ليرموه بالإلحاد والزندقة ، وبالمروق ووهن العقيدة و« شر الأزمنة أن يتبجح الجاهل ويسكت العاقل »

إن السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى ضاقت عليه الأرض بما رحبت سواء فى أفغانستان ، أوإيران ، أو تركيا ، أو مصر ، أو الهند ، أو أوربا ، ولم يسمح له أن يقيم فى أحد هذه البلاد ناعم البال ، منشرح الصدر ، لو كان من محبى المال والمناصب العالية كهؤلاء الشيوخ الرجعيين الذين ناصبوه العداء ، والعلماء المفسدين فى عصره ، لترك ما اضطهد لأجله ، ونفى من البلاد بسببه وخدمة الإسلام والمسلمين ، إن « المعوج الظاهر من الناس أقل ضررا من المتلبس بالاستقامة » .

نعم لو أن السيد جمال الدين الأفغانى الحسينى ترك خدمة الإسلام واشتغل ببث أفكاره فى العالم وما يجرى فيه من الكائنات والمخلوقات ، ولم يعمل إلى إيقاظهم – كهؤلاء الخراصين الأفاكين – لانهالت عليه سحب الدنانير ولكان

صاحب المقام الذى لايرام فى جميع البلاد ، والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية ، ولكن تلك الروح والهمة العالية لم تنزل به فى هذا الحضيض ، فما زال مشمرا عن ساعد الجد والعمل ، مجتهدا لترويج مقاصده الخيرية العالية والعالمية ، يصارع الأيام ، ويكافح النوائب والنوازل غير هياب ولا وجل ، حتى صح أن يقال عنه : إنه كان شهيدا فى حياته وصدقت عليه عبارة الزعيم الشرق كمال التركى : « أحسن شيء وأفضله فى هذه الدنيا أن يكون الإنسان شهيدا فى حياته » ، والأفغانى يقول : « من أحب الحياة فليمت فى سبيل حياة أمته » .

سنة مألوفة فى الكون ، لايأتى مصلح سابق لزمنه إلا رمى بالزندقة أو الكفر أو الجنون ، ثم أوذى ممن يسعى فى الخير لهم ، وممن يضحى بسعادته لسعادتهم ؛ ولا يقدر حق قدره إلا بعد أن يهدأ الحسد بموته ،وتتجلى صحة دعوته بعد زمنه . إن « الأديب فى الشرق يموت حياويحيا ميتا » ولكن جمال الدين الأفغانى ظلم حيا ، ومايزال يظلم بعد أن فارق الحياة ، وهو يعيش بيننا ميتا مظلوما .

وهكذا اضطهد الأفغانى وهو أحق الزعماء بالتكريم والتقدير وهو أحق القادة أن يسلك فى عداد المتقدمين من هؤلاء المفكرين الاجتماعيين ، وفى عداد كبار الثوار الأحرار ، بل وأن يتصدر صفوف هؤلاء وهؤلاء جميعا .

دعوة إلى الإصلاح والتجديد

نادى جمال الدين الأفغانى بالمساواة بين البشر والعمل لخير النوع الإنسانى ، وكان يحارب التفرقة الدينية ، ويرى أن الأديان الثلاثة على تمام الاتفاق فى المبدأ والغاية ويتمنى لو يتحد أهلها مثلما اتحدت هى فى جوهرها وهدفها ، فيخطو البشر بهذا الاتحاد خطوة كبيرة نحو السلام . وفى هذا يقول : « إن العلم الصحيح الذى يمكن للآدمى أن يصل إليه هو العلم الذى به ينتهى الإنسان عن الفساد فى الأرض وسفك الدماء » .

وبديهى أن الرجل الذى ينكر تفرقة الناس إلى يهود ونصارى ومسلمين ، ويريد توحيد الأديان الثلاثة ويدعو إلى توحيد العالم الإسلامى ، سينكر حتما تفرقة أبناء المذهب الواحد إلى شيع وفرق شتى ، فينكر مثلا انقسام المسلمين إلى سنة وشيعة ، ويدعو إلى الوحدة بين الأفغان السنة والفرس الشيعة ، ويسعى إلى إزالة سبب الخلاف بينهم ، إن كان ثمة سبب جدى للخلاف ؛ لأنه لا يعتقد أن هناك فى الواقع مثل هذا السبب ، ولقد حاول بدعوته هذه فتح السبيل لنهضة دينية واسعة النطاق فى مختلف البلاد والشعوب الإسلامية .

ويذهب الأفغانى إلى أكثر من ذلك فيدعو إلى التوفيق بين الدين والعلم ، بل يرى هذا الأمر ضرورة لابد منها فيقول : « إن الدين لايصح أن يخالف الحقائق العلمية ، فإن كان ظاهره المخالفة وجب تأويله » . ويقول فى مكان آخر : « ... وكيف لاأقول واأسفاه! وإذا نهض أحد لتفسير القرآن فلا أراه إلا يهيم بباء البسملة ويغوص ! ولا يخرج من مخرج حرف صاد (الصراط) حتى يهوى هو ومن يقرأ ذلك التفسير فى هوة عدم الانتفاع بما اشتمل عليه القرآن من المنافع الدنيوية والأخروية ، مع استكماله الأمرين على أتم وجوههما » .

«عم الجهل وتفشى الجمود فى كثير من المرتدين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة والقرآن برىء مما يقولون » .

« أثبت العلم كروية الأرض ودورانها ، وثبات الشمس دائرة على محورها . فهذه الحقيقة مع مايشابهها من الحقائق العلمية لابد من أن تتوافق مع القرآن ، والقرآن يجب أن يجل عن مخالفته للعلم الحقيقى ، خصوصا فى الكليات ، فإذا لم نر فى القرآن ما يوافق صريح العلم والكليات ، اكتفينا بما جاء فيه من الإشارة ، ورجعنا إلى التأويل ، إذ لايمكن أن تأتى العلوم والمخترعات صريحة واضحة ، وهى فى زمن التنزيل مجهولة الخلق ، كامنة فى الخفاء لم تخرج لحيز الوجود » .

و واضح أن جمال الدين إذا كان يدعو إلى تأويل الدين أو تفسيره بما يطابق ضرورات العصر الحاضر وروح المدنية الحديثة ، فهو إنما يدعو إلى الاجتهاد البصير ، وينفر من التقليد الأعمى لكل ما جاء به الأقدمون ، أو التمسك الحرفى بكل ماقاله المفسرون . وقد ذكر فى مجلسه مرة قولا للقاضى عياض تمسك به رواته فقال : « سبحان الله ! إن القاضى عياضا قال على قدر ما وسعه عقله وتناوله فهمه وناسب زمانه ، فهل لايحق لغيره أن يقول ماهو أقرب للحق وأوجه وأصوب من قول القاضى عياض وغيره من الأئمة ؟ إذا كان القاضى عياض وأمثاله سمحوا لأنفسهم أن يخالفوا أقوال من تقدمهم فاستنبطوا وقالوا ما يتفق وزمانهم ، فلم لانستنبط ونقول ما يوافق زماننا ؟! »وقيل له : إن باب الاجتهاد مسدود فتنفس الصعداء وقال: «ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود؟! بأى باب سد باب الاجتهاد ؟ أو أى إمام قال : لاينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين ، وأن يهتدى بهدى القرآن وصحيح الحديث ، أو أن يجد ويجهد لتوسع مفهومه منهما والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه ؟! » .

وهكذا كانت دعوته الدينية دعوة إلى التجديد والاجتهاد ، وتطهير الدين من الشوائب والبدع والتفاسير ، وجعله قانونا متطورا يساير الحياة المتطورة ، ويوحى كما هو فى حقيقته بالسعى والتقدم والإبداع ، والإشفاق من أن يصبح أثرا جامدا أو حرفا ميتا فى شروح الرجعيين ومتون المفسرين الذين لم يفهموا نصه وروحه على وجههما الصحيح إن « ثمرة العقول لاتجنى إلا بإطلاقها من قيود الأوهام » و « قيد الأغلال أهون من قيد العقول بالأوهام » .

وقد روى الأستاذ عبد القادر المغربى أن السيد جمال الدين قال له بضرورة

القيام بحركة تجديدية فى الدين أشبه بحركة مارتن لوثر مؤسس البروتستنتية فى أوربا ، تعنى باستئصال ما رسخ فى عقول العوام وبعض الخواص ممن فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الصحيح الحقيقى ؛ مثل حملهم نصوص القضاء والقدر على معنى يوجب أن لايتحركوا إلى طلب مجد أو تخلص من ذل ، ومثل ... ومثل ... فلابد من بث العقائد الدينية الحقة بين الجمهور ، وشرحها لهم على وجهها الصحيح المناسب . ولابد أيضا من تهذيب علومنا وتنقيحها وتأليف كتب فيها قريبة المأخذ سهلة الفهم لنستعين بها على تقدمنا ، لأن نجعلها علما مقصودا لذاته كعلم النحو والبلاغة ، يقضى الإنسان جل حياته فى الاشتغال فيهما ، ولايقدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يجيش فى نفسه إن « اللغة العربية وسعهاالبدو فى البرارى والقفار ، وضيقها الحضر فى المدن والأمصار » .

كان همه المُلح أن يحرر المسلمين من رثاثة تقاليد ، وغثاثة أخلاق لاتمت بصلة إلى عقل أو يقين أو دين ، وقد قال الدكتور عثمان أمين بصدد دعوته الدينية : « لقد كانت حركات الإصلاح فى الإسلام قبل جمال الدين حركات رجعية بعيدة عن ميول التجديد فكان دعاة الإصلاح ينسبون اضمحلال المسلمين إلى إهمالهم تطبيق الشريعة الإسلامية وبعدهم عن بساطتها الأولى . ولكن طرافة جمال الدين أنه دعا المستنيرين من المسلمين إلى النظر فى حالهم ، لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح ، يستطيع أن ينمو نموا طبيعيا وأن يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية ، وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية » .

وكل ذلك وغيره فيما مضى ومما سنعرض له ، أمور ولمحات من الخبرات العملية والثقافية والتنظيمية من فكر الأفغانى العملاق ينكرها عليه الجامدون والمتزمتون الذين درجوا على وضع عقائدهم الدينية الخرافية فى خصومة دائمة أبدية مع الحقائق العلمية والواقعية والعملية ، واتهام كل مفكر إسلامى حر ، وكل مجدد إسلامى مجتهد بالزندقة والإلحاد ، وبوهن الاعتقاد وبالمروق فجنوا بذلك على الإسلام جناية كبرى ، ظهرأثرها فى الانحطاط السياسى والعلمى

والاجتماعى الذى نرى عليه المسلمين اليوم فى العالم وهذا الذى دعى الأفغانى إلى محاربته والوقوف فى طريقه ، والصمود أمامه لينطلق الفكر والعقل الإسلامى حرا فى غير إسراف ، وثمرة العقل والفكر الحر لا تجنى إلا بإطلاقه من قيد الوهم ، وقيد العقل بالوهم يعقده عن الحركة والانطلاق ، والعقل يجب أن ينطلق فى الآفاق فى إطار البعد الذى يحدده كتاب الإسلام ورسول الإسلام ﷺ . وقد نهض الأفغانى بالدور الفكرى العملاق فى حياة الشعوب الإسلامية والشرقية ، وأضاف بعدا ثوريا هاما وجديدا من الناحية العملية إلى الثورة الإسلامية فى الشرق .

مشعل تحرر وكفاح ونضال وجهاد

ذلك هو مجمل دعوة الأفغانى الدينية والإصلاحية والتجديدية التى دعا إليها ، وناضل لأجلها وكافح فى سبيل الدفاع عنها ، ومات أو قتل فى سبيل النهوض بها ، أما دعوته السياسية فقد تركزت فى أمرين رئيسيين هما : تحرير البلاد الشرقية وشعوبها المضطهدة من الحكم الاستبدادى والطغيان الاستعمارى ، وإنقاذها من الاستعمار الأجنبى غربيا كان أو شرقيا . فقد طاف الحكيم الأفغانى بلاد الشرق والغرب وجال فيها وصال– كما ذكرت فى ترجمته– فرأى التأخر والانحطاط والضعف فى جانب ، والتقدم والرقى والقوة فى الجانب الآخر ، رأى اتكالا وكسلا وموتا فى قوم ، وسعيا ونشاطا وحياة فى الآخرين ، وجد سبب هذا التفاوت الكبير فى أخذ الغربيين بأسباب العلم والمدنية وتمسكهم بأهداب الحرية ، بينما خضع الشرقيون للحكم المطلق فعانوا استبداد الأمراء والحكام الظالمين ، وتعرضوا لعدوان المستعمرين المستبدين لتفشى الجهل والجمود والاستكانة فيهم ، قال : « انظروا إلى العالم الغربى تروه على تقسيماته الحاضرة ، واستقلال عناصره بمميزاتهم القومية ، لما تساووا على الوجه النسبى بالفضيلة ، وأهمها العلم بالواجبات سواء كانت لهم ومعرفة وجوه المطالبة بها ، أو عليهم والمسارعة لأدائها ... إلخ » « أصبح الأوربيون اليوم والكل فى وقت واحد حاكما لنفسه محكوما منها بعامل الحكم الشورى ، ...إلخ » .

«ومختصر القول أن الحكم للعقل والعلم، ومتى صادفت هاتان القوتان حمقا

وجهلا تغلبتا عليهما . وهكذا القول فى حكم الفرد المطلق ، فإنه يكون ويدوم مادامت الأمة تتخبط فى دياجى الجهل . متى فشا العلم فى الأمة فأول ما تناهض ذلك الشكل من الحكم ، وتعمل على التخلص منه ، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ » .

ومن غمه اتجه همه إلى إنهاض البلدان والأمم الشرقية جملة وفرادى ، وكان أساس هذا النهوض فى رأيه تحرر هذه البلدان من الحكم الاستبدادى ، وتحررها من الحكم الأجنبى أو النفوذ الاستعمارى المتوغل فيها شيئا فشيئا ، والتمسك بحقوقها السياسية ، ثم تضافرها بنوع من الاتحاد يقوى التناصر بينها ويكفل لها السلامة والمناعة والقوة ، لا يمكن لهذا الشرق أن يتخلص من براثن الاستعمار ، ولا أن ينجو بنفسه إلا إذا اتحد أهله تحت راية قوية واحدة . أما الدعامة الأولى التى يعتمد عليها فى الوصول بالشرقيين إلى هذه الغاية والهدف فهى العلم:

« أقول للشرقيين تأملوا كيف تحافظ الدول على ثغور مستعمراتها خوفا من إدخال الأسلحة ، والأجزاء النارية إليها ، وكيف يشددون النكير وينزلون أصرم العواقب على من فعل ذلك ... إلخ » العلم لقوم أو لأمة قد سهل الحجر عليها محض الجهل ، ليس بأقل أو أخف دهشة وتأثيرا من إدخال السلاح لمستعمرات المستعمرين ، أو الأوصياء على ثروة الشرقيين وبلادهم لسرفهم وجهلهم!فالغربيون ولاريب يمانعون بطرق خفية ، ترقية الشرقيين لأنفسهم عن طريقة وطنية خاصة بهم ... إلخ » .

« لاتزال تسمع كلا من العربى والفارسى وغيرهما من الشرقيين ، يقولون : نحن أحفاد أولئك الأجداد ، ومن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد ، ونحن ونحن ... إلخ » .

« ... أى بينة على أننا خلف ذلك السلف ؟ هل يعقل لو ورثنا أخلاقهم ، وحافظنا على فضائلهم ، واقتفينا أثرهم ، ولم نحد عن سيرهم وسيرتهم ، نعم ، لو علمنا بعض ذلك ، هل كان يسهل سلب الميراث منا ، وأن يستبد بملكنا غيرنا ، أم بقينا نحن الوارثون؟! »

صاح هل تعرف ما دستورنا   كيف فى الدهر مضى تدبيرنا
الكتاب الحى والذكر الحكيم   حكمة فى الدهر تبقى لا تريم

هكذا كان الأفغانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، مشعلا من مشاعل الحرية والمعرفة ينير بقوة علمه أينما حل ، ورسولا أطل على الشرق بشجاعته النادرة فى إبان رقاده ، مهيبا فى إقدام بالجاهلين من أبنائه إلى العلم والمعرفة الحقة ، وبالمتفرقين بالاتحاد ووحدة الكلمة ، وحاثا المتقاعسين على السعى الحثيث والمتخاذلين على الجهاد والنضال فى سبيل حريتهم المسلوبة واستقلال أوطانهم المستعبدة ، قائلا : إن الحرية والاستقلال لا يوهبان من ظالم ولا يمنحان من مستعمر مستبد ، بل يؤخذان بنضال وقوة واقتدار ، بجبل تراب البلاد بدماء الشهداء الميامين ، أولى النفس الأبية والهمم العالية إن « الحرية تؤخذ ولاتعطى » ، متنقلا بين الأفغان وتركيا ومصر وإيران ، داعيا باستمرار إلى مقاومة الحكم الأجنبى ، معرجا على روسيا ، مطالبا بحرية المسلمين وطبع المصحف الشريف ، والهند لإثارة الشعب الهندى ضد الإنجليز ، مطوفا فى عواصم أوربا لمطالبة حكوماتهابالاعتراف على حقوق الشعوب الشرقية ، مضحيا فى سبيل مثله العليا بكل ما يتعلق به الناس من متع الحياة ورغد العيش فى القصور ، مجابها مكائد الدول الاستعمارية وفى مقدمتها الدولة الإنجليزية التى نذر نفسه لتحطيم الأغلال التى تكبل بها بلدان الشرق وشعوبه ، متعرضا لاضطهاد الملوك والحكام الذين كانوا يهدمون دولهم بمظالمهم واستبدادهم ، ولايريدون الإصلاح الذى يدعو إليه ، ويرغبهم فيه-وإن كان فيه خلاص أوطانهم ورفعة بلادهم ودوام حكمهم ؛ لأن هذا الإصلاح ينتقص من سلطانهم ويكف من استبدادهم ، فقاوموه وقاوموا بذور الإصلاح التى زرعها وبغوا عليه ، وناصبوه العداء ، وطاردوه ليلا ونهارا من قطر إلى آخر ، لصدق غايته فى الإصلاح ،وإباء نفسه للذل والهوان ، وتأثير دعوته فى الشعوب والأمم ، حتى ما كان ليدرى فى أى مكان ستشرق عليه شمس الغد . وزاد العلماء على ما فعل الملوك ؛ رميه بالزندقة والإلحاد ووهن العقيدة والفساد .

ومن هنا كان قول الشيخ إبراهيم اليازجى فى ترجمته : إنها أدنى لأن تكون ترجمة رجل سياسى قد جعل نصب ناظره غرضا بعيدا ، هو أبدا تمثال يقظته وطيف منامه، فكان يلتمسه فى كل مكان رجا فيه خيرا، وشبهه بالمتنبى القائل :

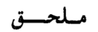
أبدا أقطع البلاد ونجمى فى نحوس وهمتى فى صعود

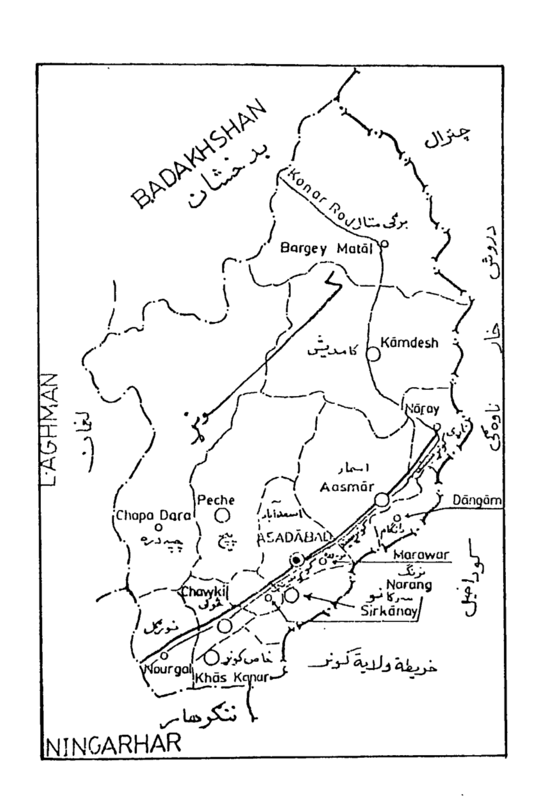
وعجب الشيخ اليازجى من انصراف حكيم عظيم مثله إلى السياسة ومتاعبها ، ولاعجب من ذلك فى الواقع ولا غرابة ، فإنما انصرف جمال الدين الأفغانى إلى السياسة واهتم بمشاكلها لأنه رأى كما قال الأستاذ رشيد رضا : « إنها إذا لم تصلح لاتدع أحدا يعمل إصلاحا ، ولا يطلب فلاحا ، ولاينشر علما ترقى به الأمة ، ولايطوى وهما يكشف به الغمة ، وإن هى سمحت لمثله بالإصلاح ببث العلوم ، وتربية الأرواح والعقول ، فإن طريق ذلك يطول عليه ، وربما حالت المطامع الأجنبية دون الوصول إليه . فهو ما اختار الإصلاح من طريق السياسة إلا لاعتقاده أن العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة ». وذلك هو الحق المبين والطريق المستقيم . تم بعون الله وله الحمد .

يوم الثلاثاء

أول جمادى الآخرة ١٣٧٤ هـ

٢٥ينـاير ١٩٥٥م




BADAKHSHAN
Konar Rod
Bargey Matāl
Kāmdesh
Nāray
Aasmār
Dāngām
Marawar
Narang
Sirkānay
Peche
Chapa Dara
ASADĀBAD
Chawki
Nourgal
Khās Konar
LAGHMAN
NINGARHAR

السيد جمال الدين الأفغانى وحقيقة فكره وموطنه :

أولا - الأفغانى وفكره :

قصة فلسفة الأفغانى الإصلاحية عريقة متجددة تضرب بجذورها الإسلامية من حيث القدم والأصالة فى أعماق الحركات الإسلامية فى العالم . إننى أعتقد جازما أن الحديث عن الأفغانى صاحب التجربة الأولى فى الفلسفة الإصلاحية يأتى تلبية لحاجة الأجيال الإسلامية الماسة إلى معرفة تاريخها ، وحاجتها الملحة لعوامل الثقة التى تربطها بهذا التاريخ المجيد ، القريب منه والبعيد وما فيه من الأدوار البطولية الرائعة التى قام بها زعماؤها من أمثال السيد الأفغانى ، ومحمد عبده ، ومن قبلهما من أمثال محمد بن عبد الوهاب ، والشيخ الشوكانى . وإذا كان الأفغانى ومحمد عبده امتدادا للشوكانى ومحمد بن عبد الوهاب ، فإن الشوكانى وابن عبد الوهاب كانا فى الحقيقة من نتاج صرخة التوحيد التى رفعها وقادها الإمام أحمد بن حنبل للعودة إلى منهج القرآن عن طريق العودة إلى الأصولية ، وقد تحولت الصيحة الحنبلية إلى الثورة الإسلامية على يد شيخ الإسلام ابن تيمية ، الرامية إلى العودة بالإسلام السلفى إلى أصوله . وقد ظهر على مر الأجيال والعصور مصلحون عظام ، وثائرون مسلمون أحدثوا ثورات إصلاحية عظيمة مؤثرة ترتبط فى أفكارها الإصلاحية الثورية بالأصولية الإسلامية المستلهمة من دعوة ابن حنبل السلفية ، وصرخة ابن تيمية الثورية المدوية فى أرجاء العالم الإسلامية .. الأفغانى إذن نجم لامع فى تاريخ حركات البعث الإسلامى فى العصر الحديث .

فليس من الغريب أن تكون أفكار الأفغانى بذرة لكل ثورة إصلاحية ، أو تحرك وطنى فى البلاد الإسلامية ، بل فى بلاد الشرق قاطبة ، لقد زرع الأفغانى فى أرض الإسلام بذرة اليقظة والحرية والاستقلال والاستنارة والجهاد ضد كل ما هو ضد الإسلام ، وضد كل ما هو ظالم ومستبد وجائر . ولم تتوقف الدعوة الإصلاحية للمطالبة بالعودة إلى السلفية ، وأصول الإسلام عند الأفغانى أو تلميذه محمد عبده ، ولكنها شكلت نبعا صافيا دافقا ظل يتنامى منذ تلك الأيام حتى أيامنا هذه التى

نعيش فيها، فقد ظل فكر الأفغانى الثورى يؤثر فى سلسلة طويلة تالية من المجددين السلفيين من أمثال رشيد رضا ، السنوسى ، المهدى ، حسن البنا ، المودودى ، سيد قطب وغيرهم كثيرين . ومن تلاميذ هذه الثورة فى العصر الحاضر من الأفغان النيازى ، والسياف ، وحكمتيار ، والربانى ، والخالص ، وجميل الرحمن . كان الأفغانى قوى الإيمان والاعتماد على الله ، لايبالى ما تأتى به صروف الدهر . إن غبار ثورته ، وأثر حركته ، وصدى فكره الثورى الإصلاحى لايزال يترك بصماته الواضحة على الحركات الإسلامية فى كل البلاد الإسلامية ، وهو من أكثر الشخصيات الإسلامية تأثيرا وأصالة وعمقا ، وثورة الأفغان الحالية نموذج حى لذلك .

فقد فرض الأفغانى نفسه وفكره ومنهجه على أكثر من بلد إسلامى ، وعلى أكثر من حركة إصلاحية ، وفرض ثقله السياسى والاجتماعى على كثير من المواقف والأحداث العالمية فى عصره ، وكان فكره الإصلاحى الثورى جزءا غير منفك من كل ثورة قامت فى الوطن الإسلامى . وهو الذى وضع الجذور الحقيقية للإحياء والبعث الإسلامى ، فى ملة الإسلام ، وهو الذى حرك فى أهلها الهمم والمشاعر الإسلامية ونبهها إلى الخطر المحدق عليها من الغرب ومن الشرق معا .

دعا الأفغانى بقوة الإيمان والاقتناع إلى إعادة الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، وبذل فى ذلك جهدا جبارا ليدفع تلك الشعوب إلى تلك الحقيقة التى حققت المثل العليا ، والأخلاق الفاضلة ، والسلوكيات السامية فى الحياة الإسلامية فى عهودها الذهبية الأولى التى صنعت النهضة الأولى لأمة الإسلام . ولم يكن من الميسور ولا من السهل وقتئذ أن تتم هذه النقلة الثورية العظيمة ؛ نقل الحقيقة الإسلامية الكاملة إلى واقع الشعوب الإسلامية ، أو نقل واقع الشعوب المسلمة إلى تلك الحقيقة طرفة عين ، أو بين يوم وليلة نظرا لبعد المسافة الزمنية بين تلك الحقيقة وبين واقع الشعوب . حاول الأفغانى جاهدا نقل الشعوب الإسلامية من واقع باطل إلى تطبيق الحقيقة الإسلامية من خلال الثورة السريعة التى حمل لواءها ؛ ليجعل من القرآن والسنة النبوية نبراس المسلمين وإمامهم فى كل البلاد الإسلامية . ومن أجل ذلك وضع أساس الحركة الإسلامية المعاصرة ، وركز على القرآن والسنة باعتبارهما العروة الوثقى بين الشعوب المسلمة قاطبة . وبذلك كان الأفغانى أكثر أصالة من غيره من زعماء عصره، إذ أنه تمسك بالقرآن ومنهجه

القويم لأجل النهوض بالشعوب الإسلامية ، ولأجل الصمود والوقوف فى وجه حركة التغريب التى نادى بها البعض ، وموقفه الصلب والحازم من نظرية دارون الإلحادية الدهرية هو أول صيحة قوية لمواجهة هذا الخطر من الفلسفة المادية ، والحركة العلمانية فى العالم الإسلامى . وقد أبرز فى ذلك خصائص الفلسفة الإسلامية ومزاياها القرآنية ودفع بها نظرية دارون الدهرية .

إن الأفغانى يحسب حب الوطن الإسلامى دينا ، والدفاع عنه جهادا ، والموت فى هذا السبيل شهادة وهذا هو الشعار المفضل للتنظيمات الجهادية الأفغانية فى الوقت الحاضر ، وهو يرى كما يرى أبناء وطنه المجاهدون أن الله قد قدر فى ذلك النعمتين ، وللسائر فى ذلك الحسنيين ، وعاش فى ذلك لأجل ذلك ، ومات عليه راضيا رغم أنوف الحاسدين الذين يحاولون عبثا تأويل كلامه إلى ما لم يقصد ، وحاولوا إطفاء نور جنباته النيرة ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الحاقدون المبطلون . إن الأفغانى فكر نير ، وعقل إسلامى رشيد قيضه الله لإحياء الحركة الإسلامية فى العالم ، فعاشت به وعاش لها ، وتمتعت بثمار فكره المستنير ، وقد قادها نحو التنوير والتطوير والنهوض لمواجهة المخاطر ، ومسايرة المستجدات مستندا فى ذلك إلى الأفكار السلفية الإسلامية الأصيلة المستلهمة من القرآن والسنة النبوية المطهرة .

لقد أثار الأفغانى ثورة فكرية ودينية وسياسية كبرى كان الهدف منها إيقاظ العالم الإسلامى من غفوته وتنبيهه إلى مخاطر الزحف العدائى الاستعمارى الغربى ، وتجديد الاجتهاد الإسلامى وبعث النهضة الإسلامية فى كل الديار الإسلامية من المشارق والمغارب . وقد جاءت ثورته الإسلاميةالإصلاحية هذه حلقة قوية ، دعمها معه تلميذه الإمام محمد عبده فى إطار الدعوة الإسلامية السلفية إلى الأصولية الإسلامية . وثورة الأفغانى مزيج من الجانبين الدينى والدنيوى عملا بالفكرة الواردة فى هذا القول المأثور « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ... وكان يتمتع بمهابة عظيمة وعلم غزير فى كلا الجانبين ، حيث أحس بما يشيع فى المسلمين من خرافات وأباطيل ، فأخذ يعرض الإسلام بطريقة تقنع المنكرين ، وتقمع المغرورين ، وتستنهض المنهزمين ، وتطرد الجمود والخمول من المتنائمين المتواكلين .

غالى الأفغانى فى التركيز على الخصائص الأدبية والفكرية التى كرم الله بها الإنسان ، ونوه بعظمة العقل وقدرته على كشف الأسرار والأغوار الفكرية ، ويرى تعطيل العقل مرادفا للحيوانية أو الموت ، وهو يزدرى بشدة الأهواء والميول النفسية ، والتقنينات الأجنبية ، ويجعل القرآن أساس الحكم فى الأرض ، ويحتقر الجمود والخمول والفلسفات الانهزامية التى تشد المسلم إلى الوراء ، وتعطل عقله وفكره . وفى هذا نجد أنفسنا أمام صيحة مدوية قوية ثائرة من صيحات الحق ، ودعوة صادقة مخلصة من دعوات البعث والإحياء لواقع الشعوب الإسلامية المر . وقد عاش الأفغانى لأداء هذه الرسالة التى حمل لواءها على أكتافه ، ومات أو قتل شهيدا فى سبيلها فى إطار الظروف والملابسات التى أحاطت به فى حياته وعصره . لم يتحكم فيه اليأس والقنوط ، ولم يستسلم أبدا للهوان والذل ، ولم يقف عند الموانع والعقبات حائرا ، وقد دك الجبال ، وشق البحار ، وقطع القفار لتحقيق ما أراد تحقيقه ، والفوز بما أعده الله له من تأدية رسالة الإسلام ، ومجد المسلمين بعودتهم إلى الإسلام الأول .

ثانيا – الأفغانى وقصة الخلافات والخصومات :

وقصة فكر الأفغانى مع صانعى الخلافات والخصومات فى الأمة الإسلامية والنافخين فى كيرها ، والمكتسبين بها ، قديمة متجددة تضرب هى الأخرى بجذورها فى القدم فى أعماق ثورته الإسلامية الإصلاحية . إن القارئ ليخجل عندما يقرأ لعالم فاضل من العلماء الأجلاء وهو يصدر ويعطى حكمه هكذا جزافا حول فكر الأفغانى ودعوته الإسلامية الإصلاحية ، ولاشك أن مثل هذا الحكم الجزافى الذى لايصدر إلا عن ضيق السلوكيات العلمية ، والأخلاقيات الأدبية ، وهو يتحدى بذلك أبسط أحكام التاريخ ، ومسلمات الواقع التاريخى للزعامة الإسلامية .

ومأساة الأفغانى مع بعض أبناء أمته الإسلامية التى ناضل من أجل رفعة شأنها ، وكافح فى سبيل استئناف مسيرتها الحضارية ، وبعث النهضة الإسلامية فى كل شعوبها ، هذه المأساة دليل بين على حالة الاضطراب التى عاشتها وتعيشها الأجيال المسلمة ، وهى تقوم الحدث والواقع والموقف والشخص فى إطار بنيتها التاريخية من حيث الأصالة من خلال الدائرة الإسلامية التى تدعو إلى وضع كل شىء موضعه ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، وعلة هذا الاضطراب عند هذا البعض فى تقويم منهج الأفغانى تعود إلى عدم استيعاب هذا

النفر من العلماء الأجلاء لظاهرة التكامل الشخصى التى تفرد بها الأفغانى من ربه البارى ، من التكوين الخالص ، والذكاء الخارق ، والذاكرة المتميزة ، والكفاءة البارعة ، والفطنة الفائقة ، والأسلوب الأخاذ فى التأثير والإقناع ، والتبحر المبكر فى علوم القرآن والسنة ، والإحاطة الكاملة فى العلوم الشرعية ، والباع الطويل فى الفلسفة والاجتماع ، وفى العلوم الكونية ، والإتقان الكامل لعدد من اللغات واللهجات ، كل ذلك بفضل من الله وتوفيقه ، كما تميزالأفغانى بصلاته الاجتماعية والسياسية الواسعة محليا وإقليميا وعالميا . نعم ، إن عدم الاستيعاب لأبعاد فكر الأفغانى الذى كان له فضل السبق فى تجديد عالمية فكرة الإسلام ، وكان له السبق المبكر لفهم قضايا الأمة الإسلامية بعمق ، لهو دليل مأساة الأفغانى المفترى عليه ، ودليل حالة الاضطراب التى تعانى منها الأجيال المسلمة ، ورغم ذلك فقد استطاع الأفغانى أن يؤثر تأثيرا قويا فى سير الحركات الإسلامية ، وهو تأثير له جذوره المتجددة ، ودعوته إلى الجامعة الإسلامية لتحقيق الوحدة الإسلامية بين المسلمين ما زالت تتجدد أيضا فى كل يوم وفى كل ظرف يمر به المسلمون فى هذه الحياة الموزعة بين الحق والباطل وبين الدين والسياسة .

كان الأفغانى صاحب فكر نير مستنير ، وصاحب عقل حكيم رشيد تمتعت الإنسانية بثماره ، وأفادت الحركة الإسلامية من تجاربه الناضجة ، ولكن بعض علمائنا الأجلاء قد أساء فهمه وترجمته ، لعدم فهمه لروح العصر الذى كان يعيش فيه هذا المصلح ، فكان من الطبيعى أن يلقى منه الأفغانى نوعا من المقاومة التى أساسها الجمود ، وعدم الفهم والاستيعاب . وفك الإشكالية القائمة بين هؤلاء وهؤلاء حول منهاج الأفغانى الإصلاحى ، لايأتى إلا عن طريق التوجه الكامل إلى فكر الأفغانى ومنهاجه واستيعابه استيعابا كاملا ، بعيدا عن ضيق الأفق ، والجمود ، والحقد ، وبقدر ما يكون ذلك الاستيعاب الفكرى دقيقا واضحا واسعا شاملا ، بقدر ما يوفر ذلك حظ الفهم والوصول إلى أعماق هذا الفكر ، والنفاذ إلى طبيعته الصافية انطلاقا من الواقع وليس من الوهم وبحثا عن الحقيقة وليس الجرى وراء السراب . وهذا هو مفتاح فك الإشكالية القائمة بين المؤيد والمعارض الذى دأب على داء الاختلاف ، وقد أشار الأفغانى إلى ذلك بقوله : « الشرق الشرق .. لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى

دوائه ، فوجدت أن أقتل أدوائه انقسام أهله وتشتت آرائهم ، واختلافهم على الاتحاد ، واتحادهم على الاختلاف .. فعملت على توحيد كلمتهم ، وتنبيههم للخطر الغربى المحدق بهم ... ».

كان الأفغانى مجتهدا ومجددا ، والمجتهد معرض للخطأ والصواب ، والمجتهد فى الإسلام له أجران ؛ أجر إن أصاب الحق من اجتهاده ، وأجر إن أخطأ فى اجتهاده . وهو فى بعض اجتهاداته من أكثر الشخصيات إثارة للجدل والخلاف حول أفكاره الاجتهادية . كاد العقل الإسلامى أن يتوقف لتوقف الجهاد والاجتهاد ، وذلك نظرا للظروف الاستعمارية التى كانت تحيط بالعالم الإسلامى فى عصره ، ونظرا لتنشيط حركة التبشير والتنصير ، واستطاع الأفغانى بفكره الثورى الوقاد أن يعيد إلى الفكر الإسلامى نشاطه وحيويته ، وأن يوقظه من جديد ، وغذاه بالحرية اللازمة للتفكير والاستنارة باعتبار أن الجمود العقلى يساوى موت الشعوب ، فكان ذلك بمثابة إنقاذ الشعوب الإسلامية من الموت والهلاك .

ثالثا – الأفغانى وموطنه :

لست فى معرض الدفاع عن الأفغانى ومنهاجه الاجتماعى والسياسى ، وأما ما سقته من بعض النقاط حول هذا المنهاج ، فالغرض منه تمهيد لما هو آت من الحديث الخاص بموطن الأفغانى الذى يقول : « لقد جمعت ما تفرق من الفكر ، ولمت شعث التصور ، ونظرت إلى الشرق وأهله ، فاستوقفنى الأفغان ، وهى أول أرض مس جسمى ترابها ، ثم الهند وفيها تثقف عقلى ، فإيران بحكم الجوار والروابط ، فجزيرة العرب : من الحجاز هى مهبط الوحى ، من يمن وتبابعتها ، ونجد والعراق ، وبغداد وهارونها ومأمونها ، والشام ودعاة الأمويين فيها ، والأندلس وحمراؤها ، وما آل إليه أمرهم » .

الأفغان وهى أول أرض مس ترابها جسمى ، هذه الأرض التى مس جسم الأفغانى ترابها أرض كونر ، إحدى الولايات الأفغانية الثلاث فى شرق أفغانستان ، وهى أول أرض أعلنت الجهاد الإسلامى عام ١٩٧٤م ، وهى أول أرض تنعم بالحكم الإسلامى ، وهى أول الفتوح فى الحروب الإسلامية الجارية فى أفغانستان ، فأين كان موطن الأفغانى فى هذه الأرض بولاية كونر ؟ ..

وقصة سادات كونر وأشرافها تضرب بجذورها التاريخية الطيبة من حيث القدم فى أعماق التاريخ الأفغانى فى هذه الأرض الأفغانية ، ومن حيث التأثير فى أعماق الحياة الاجتماعية والسياسية للشعب الأفغانى ، وبخاصة فى كونر التى يتجدد فيها إشعاع الثورة الفكرية والنضالية والإصلاحية التى أطلقها السيد الأفغانى فى القرن الماضى بتجدد الصراع بين الحق والباطل .

وفوق أرض كونر دارت معارك حامية بين أهالى كونر وبين الجيش الإغريقى بقيادة الإسكندر المقدونى ، قد أصيب فيها الإسكندر نفسه بجراح كما أصيب فيها عدد من قواده ، الأمر الذى أثار غضبه ضد الأهالى ، فأقام مذابح جماعية قتل فيها جميع الأسرى من أهل كونر بوحشية ، ثم قام بعمليات التدمير والتخريب والتقتيل إلى أن وصل إلى أسمار فى أعالى كونر ، ومنها وصل إلى باجور حتى وصل إلى بشاور عن طريق دير وسوات .

كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى :

تقع ولاية كونر الموطن الذى ولد فيه الأفغانى شمال شرق أفغانستان ، ويحدها شرقا كل من جترال ، ودير ، وباجور ، وشمالا بدخشان ، وغربا لغمان ، وجنوبا ننجرهار ، وبها سلاسل من الجبال الشاهقة تكسو قممها الثلوج ، وتمتاز جبالها بكثرة الأشجار كالصنوبر ، والبلوط ، والزيتون ، والبطم ، وغيرها ، وداخل وديانها تنبت طبيعيا أشجار التوت ، والعنب ، والرمان ، والعناب ، والجوز ، والمشمش ، وأشجار الدلب ، وكثير من مختلف أنواع النباتات ، وأرض كونر تحتوى على كثير من الأحجار الكريمة ، والثروة الحيوانية فى كونر من أهم مواردها الاقتصادية .

ومن المناطق المشهورة فى كونر منطقة نورستان (أرض النور) التى كانت تدعى كافرستان (أرض الكفر) قبل دخول أهلها فى الإسلام أيام الأمير عبد الرحمن خان ، وذلك سنة ١٨٩٦ م .

وتقدر منطقة نورستان بخمسة آلاف من الأميال المربعة التى تربط كونر بعدد كبير من الولايات الأفغانية فى الشمال والغرب والجنوب ، وفى أقصى الشرق بباكستان والصين والهند ، وهى نقطة الاتصال بين سلسلتين من

الجبال ؛ هندوكش فى أفغانستان وجبال هملايا فى الهند .

ويتألف أهل كونر من عدد من الأصول العرقية الأفغانية ؛ كقبائل الصافى والتاجك والماموند والسالارزى والمهمند والكوجر (الغجر) والنورستانى والشينوارى ، وتجتمع كلها تحت لواء العقيدة الإسلامية والوطن والتقاليد والعادات والأصل العرقى الواحد ، فى وحدة إسلامية متماسكة . واللغة السائدة هى اللغة البشتونية ، وهناك لهجات ولغات محلية أخرى ، كاللهجات النورستانية المتعددة ، والكوجرية (الغجرية) والأشكنية ، والبشوية (البشئية) وغيرها من اللهجات ، وأغلبها مشتقة من اللغة البشتونية (الأفغانية) كما أن كثيرا منها فى طريقها إلى الفناء والموت .

ونهر كونر من أشهر الأنهار فى الأقاليم الشرقية وقد ورد ذكره فى الأدب الويدى باسم « راسا» وهو من أهم روافد نهر كابل ، ويشق طريقه من الشمال إلى الجنوب ، ويصب فى نهر كابل بالقرب من « سمر خيل » القاعدة العسكرية التى استولى عليها المجاهدون الأفغان أخيرا ، ويتردد صدى هذا النهر فى الأدب الأفغانى كثيرا ؛ لصفاء مائه وغزارته . ويقسم كونر إلى جزءين الشرقى والغربى ، ومن الغرب تطل عليه وديان « دره نور » (وادى النور) ومزار ، وديوكل ، وباديل ، وبيج ، وشيكل ، وكلها منازل قبائل الصافى ومواطنها الخضراء الجميلة ، ومن روافد نهر كونر المشهورة نهر بيج . ووادى بيج من أكبر الوديان الكونرية مساحة وسكانا ونشاطا وحركة ، وعلى يد قبائل الصافى أسلم أهل نورستان قديما . وعلى يد الشيخ جميل الرحمن اشتعلت الشرارة الأولى للثورة الإسلامية ، وطارت من بيج حتى شملت ولاية كونر كلها .

وعلى طول نهر كونر وعلى مدى جانبيه أو شاطئيه الشرقى والغربى ينتشر كثير من المدن والقرى مثل خيوه ، شكه ، بديالى ، إسلام بور ، منكوال ، خاص كونر ، تنر ، سوكى ، بابر ، نرهنك ، بشد ،سركانو ، نوآباد ، أسعد آباد ، الحاضرة ، كيراله (كرهاله) دوشاخيل ، (وهو مدخل وادى بيج) ، مره وره ، شين كولك ، دانكام ، أسمار (بها القاعدة العسكرية المشهورة) نارى ، شال ، كامديش ، بريكوت ، بركيمتال ، وغيرها .

وفيما يلى المدن والقرى التى تقطنها أسرة السيد جمال الدين الأفغانى على طول ولاية كونر وعرضها ، ونبدأ القصة بإيجاز شديد بهذا التمهيد المختصر من تاريخ حركة الأفغانى الإصلاحية :

فى سنة ١٨٥٧ م ظهر فى بلاط الأمير دوست محمد خان فى كابل المصلح جمال الدين الأفغانى آتيا من كونر أرض آبائه وأجداده ، ومسقط رأسه ومهد آلامه وأحزانه الإسلامية ، حاملا فكرا ثوريا وهَّاجا ، وكان الأمير مشغولا بكامل قواه بالمؤامرات التى يدبرها الإنجليز والروس ضد أفغانستان ، فلم يتمكن من الاستفادة من هذا الثائر ، ولم يلتفت إلى برنامجه الإصلاحى ، ورغم ذلك واصل الأفغانى الذى ولد فى أسعد آباد بكونر سنة ١٨٣٨ م ، وأصبح أحد قادة حركات التحرير فى العالم ، وأحد أشهر مؤسسى الحركة الإسلامية بخاصة فى أفغانستان ، وصاحب مدرسة كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى ، واصل نشاطه الإسلامى والسياسى والاجتماعى فى العاصمة الأفغانية حتى أيام الأمير شير على خان وكان أثناء ذلك من مؤيدى الأمير محمد أعظم خان ، إلا أن الاضطرابات التى صادفتها البلاد الأفغانية أصبحت عقبة فى طريقه حيث كان الأمراء الأفغان فى صراع مرير مع الإنجليز والروس يحاولون إنقاذ البلاد من ويلات تلك الصراعات الدامية .. « إنى اضطررت لترك بلادى الأفغان مضطربة تتلاعب بها الأهواء والأغراض... ». فقد غادر الأفغانى بلاده مضطربة ولكنه ترك فيها حركة يتردد صداها حتى الآن فى جنبات جبال « هندوكش » و« تخت سليمان » نعم ، غادرها محلقا فى أرجاء العالم الفسيحة حاملا دعوته السلفية الإصلاحية إلى الوحدة الإسلامية ، وإلى تحرير الشرق من ربقة الاستعمار والعبودية والاستبداد .

نترك الأفغانى محلقا فى سماء العالم الإسلامى داعيا إلى الوحدة الإسلامية ، فى إطار الجامعة الإسلامية ، وإلى تحرير الشرق من العبودية والاستبداد فى إطار الحرية والاستقلال ، ونعود إلى موطنه الذى ترك فيه دعوته الثورية الإصلاحية الإسلامية ، وهى تتفاعل بين زعماء أسرة السيد الأفغانى ، وجماعة العلماء والشيوخ ، وزعماء القبائل والعشائر الأفغانية . وقد لخصت الحديث عن المنازل التى تعيش فيها أسرة السيد الأفغانى فى أربع نقاط رئيسية وهى : أسرة الأفغانى ، ولغته الأصلية ، وأسرةأخواله ولغتهم ، والانتماءات المشتركة بين الشعبين الأفغانى والإيرانى ،

بالإضافة إلى كلمة قصيرة للرد على الافتراءات وذلك لإزالة الشك الذى أثاره بعض المتشككين بغرض التشكيك فى الزعامات الإسلامية فى العصر الحديث ، مستغلين فى ذلك ما يجرى الآن فى بعض الأجزاء من العالم الإسلامى من المنازعات المؤسفة المؤلمة .فالمسألة ليست فى كون الأفغانى أفغانيا أو إيرانيا أو ما سونيا ، بل الهدف هو التشكيك ، وإثارة البلبلة ، وزعزعة الثقة فى الزعامة الإسلامية ، وموقف الدكتور لويس عوض المتحايز للثقافة الغربية المسيحية غير خافٍ على أحد ، وكرهه للأفغانى نابع – دون شك – من حبه لدينه ومن ميوله للدول الغربية التى يؤمن بولائها ، ومن هذا المبدأ هاجم الأفغانى ، وعبر فى هجومه عن حقده الكامن فى نفسه ، كما سيأتى ذلك بشىء من التفصيل .

أسرة السيد جمال الدين الأفغانى :

ولأسرة جمال الدين الأفغانى فى كونر بأفغانستان الشرقية منزلة عالية نظرا لمكانتها السياسية والاجتماعية والعلمية ، إذكانت لها الإمارة والسيادة على إقليم كونر موطن الأفغانى ، وبيته بيت علم ومجد وعز وشرف وسيادة ، ورأى فى الميادين والمجالات المختلفة ، ثم إن الحياة التى أمضاها السيد الأفغانى فى البلاط فى كابل ومع الأمراء من الأسر الحاكمة كان لها تأثير على شخصيته .

وهذه الحياة تعتبر نقطة تحول فى كفاحه الإسلامى الوطنى ضد التبعية والاستعمار ، كما كانت حياته فى أسرته نقطة تحول فى حياته الاجتماعية والعلمية .

عاش السيد فى أسرة ذات منزلة عالية فى منازل الأفغان ، إذ كان بيته بيت عز وشرف ، وإذا كان التكوين الفسيولوجى هو المؤثر فى تكوين شخصية زعيم أو فيلسوف أو مصلح ، فإن الوضع الجغرافى والبيئة الاجتماعية والأوضاع السياسية ومشاهد المعارك والحروب ، كل ذلك له تأثير قوى ومؤثر أيضا فى تنشئة الفرد وتفكيره وسلوكه تجاه المجتمع الذى عاش فيه ، وكذلك تجاه الآخرين من الشعوب والدول والحكومات .

نبغ السيد الأفغانى فى عائلة رجالها بارزون فى ميادين العلم والأدب والسياسة والنضال ، أشداء أقوياء تحتفظ بعزتها وكرامتها وقوتها الإسلامية ، وسخائها وشجاعتها ونخوتها الأفغانية وعظمتها العائلية ، ولد السيد جمال الدين الأفغانى فى

إقليم جبلي وعلى ضفاف نهر هادر صاف نقى المياه يطبع أهله بطابع البيئة الجبلية الناضرة ، وبنقاء المياه المتدفقة وهديرها ، رؤوسهم عالية كشموخ الجبال ، وقلوبهم صلبة لاتهزها الرياح العاصفة ، وأفكارهم صافية كالسماء حين تشرق عليها الشمس ، وحول جبال كونر الشاهقة وعلى ضفاف نهرها دارت معارك ضارية ثائرة مع الغزاة والطغاة المعتدين ؛ ابتداء من معارك الإسكندر التاريخية وحتى العصر الحاضر أيام الاحتلال الروسى لأفغانستان ، حيث كانت أول إقليم من الأقاليم الأفغانية فاضت فيها انتفاضة الجهاد المقدس ضد الاحتلال الروسى وأعوانه . وهذه الحياة - كما أسلفت - نقطة تحول أخرى فى حياته الاجتماعية .

بيت السيد الأفغانى بيت علم وثقافة بالإضافة إلى مكانته السياسية والاجتماعية ، تعلم السيد اللغات العربية والأفغانية والفارسية ، وكانت الثقافة الإسلامية مسيطرة ومنتشرة فى البلاد الأفغانية ، وفيما جاورها من البلاد ، وقد نبغ فى هذه البيئةالإسلامية علماء فى علوم التفسير والحديث والفقة ؛ من أمثال القاضى مبارك ، والعالم الفاضل حمد الله ، والكاتب المؤلف محمود الجونفورى ، والمنطقى الشهير عبد الحميد السيالكوتى ، والمحدث العظيم الشاه نعمة الله ، وكان معاصروه وزملاؤه فى الكفاح ؛ نجم الدين العالم ، والمناضل صديق حسن ، والشيخ أخنزاده السواتى ، والملا مشك عالم ، وغيرهم من العلماء المناضلين ، وكانت الصلة قوية ومتينة بين السيد الأفغانى وبين هؤلاء المناضلين فى بلاد الأفغان . عاش الأفغانى فى كونر كما عاش فيها آباؤه وأجداده ، وكان يتردد على مدينة« جلال آباد »حاضرة « ننكرهار » لدراسة العلوم العربية ، ووفقا للتقاليد الأفغانية فى رحلة الشتاء والصيف ، كان السيد الأفغانى يسافر مع أسرته إلى منطقة « خوكيانى » الجبلية لقضاء فصل الصيف هناك فى سفح الجبل الأبيض « سبين غر » فى ننكرهار ، ويلاحظ أن سادات كونر وأشرافها وغيرهم من الأغنياء يملكون بيوتا فى كونر للمعيشة الدائمة طوال العام ، كما يملكون بيوتا أخرى فى المصايف مثل « خوكيانى » وكابل وغيرهما من المصايف الأفغانية لقضاء أشهر الحر فى الصيف ، وكنوع من تغيير الجو ، فأسرة السيد كونرية أفغانية ، انتشر أبناؤها فى الأقاليم والمناطق الأفغانية المختلفة ، أما فى وادى كونر فلهم فيها خمسة مراكز رئيسية ، بالإضافة إلى قرى ومدن أخرى منتشرة فى جميع أنحاء الإقليم ،

يعيش فيها أشراف كونر وساداتها ، وهذه المراكز هى :

١ – إسلام بور (مدينة الإسلام) وتقع على شاطئ نهر كونر عند مدخل الوادى على يمين الذاهب إلى الحاضرة « أسعد آباد» وقلاعها الحصينة ما زالت شامخة شموخ أهلها ، وكأنها فى سباق مع الزمن والجبل والنهر ومدينة « إسلام بور » القديمة التى يقطنها فرع آخر من هذه الأسرة الكريمة ، والسيد مصطفى (بابا باشا) كان عميدا لأسرة السيد فى « إسلام بور» حتى منذ عدة أعوام مضت .

٢ – نرهنك (قبيلة الشهامة والرجولة) نراها رابضة فى وسط وادى كونر ، وتقع أيضا على شاطئ النهر فى الساحل الغربى ، وفى مقابلها على الجانب الآخر من النهر تربض قرية « بشد » التى تشتهر بحقول الأرز الجيد الممتاز ، وتسكنها طائفة من سادات كونر وأشرافها . وعميد أسرة السيد فى « نرهنك » هو السيد غلام رسول باشا .

٣ – دو شاخيل (قبيلة السادات) وتقع بجوار « أسعد آباد » الحاضرة ، على شاطئ نهر « بيج » تحت سفح الجبل . ويلتجئ إليها أفراد قبائل « صافى » وغيرهم لحل المنازعات القبلية ، والمشاكل الاجتماعية ، وللتبرك أيضا .

٤ –شين كولك(كورك)(الطوفان الأخضر)وتقع بين« أسعدآباد »و« أسمار » بعيدا عن الشاطئ ، وأحد أفراد هذا الفرع من الأسرة كان سفيرا لأفغانستان فى مصر ، وهو السيد شمس الدين مجروح . وأسمار هذه قاعدة عسكرية هامة فى الوادى ، وكانت مسرحا للمعارك الدامية بين الثوار المجاهدين الأفغان ، وبين القوات الحكومية الموالية للشيوعية ، وقد استسلمت بكامل أفرادها وأسلحتها للمجاهدين .

٥ – شال (الرداء النسائى) وتقع بين « أسمار » و « كامديش » فى أعالى وادى كونر ، بالقرب من حدود مقاطعة « دير » المشهورة ، ومن أشهر شاعرات هذه الأسرة فى « شال » هى (مستورة شال) التى كانت تعمل مذيعة بإذاعة كابل عاصمة أفغانستان .

وهكذا نرى انتشار أسرة السيد جمال الدين الأفغانى فى مختلف أنحاء منازل الأفغان فى أفغانستان وغيرها ، وخاصة فى وادى كونر بأسفله وأعاليه ووسطه ، ذلك الوادى الذى لايتكلم أهله إلا اللغة الأفغانية .

لغة السيد جمال الدين الأفغانى الأصلية :

تنتشر فى أفغانستان لغات ولهجات كثيرة ، يزيد عددها على ٣٥ لغة ولهجة أفغانية ، أكثرها رواجا وانتشارا لغتان ، **الأولى** : الأفغانية التى اشتهرت باسم البشتونية أو البختونية ، **والثانية** : الدرية التى تعرف باسم الفارسية ، وكان السيد الأفغانى يجيد اللغتين ، فما هى لغته الأصلية يا ترى ؟؟ إن السيد الأفغانى من سادات كونر المشهورين وأشرافها الذين لايتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البشتونية) كبقية القبائل الأفغانية التى تقطن هذا الوادى الجميل ، هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى فإن جدته من الأم السيدة مريم كانت ابنة الزعيم دولت خان تزوجها السيد على الترمذى عندما استقر به المقام فى « دير » بعد انتقاله إليها من موطنه الأصلى ، والزعيم دولت خان ينتمى إلى الأسرة الحاكمة التى كانت لها السيادة على إقليم « دير » المجاور لإقليم كونر ، فالأسرتان ؛ أسرة السيد كانت لها السيادة فى كونر ، وأسرة أخواله كانت لها السيادة على مقاطعة دير ، وهى تنتمى إلى قبيلة (اليوسفزى) الأفغانية المشهورة . وأفراد هذه الأسرة أيضا لايتكلمون إلا اللغة الأفغانية (البختونية) فالسيد أفغانى كونرى المولد ، وأفغانى الأصل أبا وأما ، وأفغانى لحما ودما ، وكان يتكلم اللغة الأفغانية لغة آبائه وأجداده ، وتعلم اللغة الفارسية لغة البلاد الأفغانية الثانية ، كما كانت الأسرتان لاتعرفان فى ذلك الوقت غير اللغة الأفغانية (البشتونية) أو (البختونية) ولذلك نراه يطالب الحكومة الأفغانية حينذاك بتقوية هذه اللغة والنهوض بها ، وذلك عندما قدم إليها برنامجه الإصلاحى المشهور .

وبالإضافة إلى ذلك كان السيد يتكلم اللغة الأفغانية مع ملازمه الوفى أبى تراب الأفغانى الذى عاون الشيخ محمد عبده فى ترجمة كتاب السيد « الرد على الدهريين » إلى اللغة العربية ، وكان كذلك يتكلم مع صاحبه وصديق أسفاره الحاج موسى القندهارى الذى كان يرافقه فى مصر وفى تركيا ، وكان من أصدقاء السيد الأفغانى أيضا السردار عبد الله خان الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد

كان الشيخ الشهيد عبيد الله خان صافى الذى ترجم « العروة الوثقى » إلى اللغة الأفغانية ، قد قابل الحاج موسى القندهارى الذى لم يكن يتكلم أو يجيد إلا اللغة الأفغانية ، وقد قص عليه بالتفصيل ما كان يجرى بينه وبين السيد الأفغانى من الحوار والمناقشات والأحاديث فى أسفارهما .

ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : « ... وفى نفيه الأخير إلى الهند كتب مذكرات كثيرة فى موضوعات مختلفة بالفارسية والأفغانية ... » . ومن المعروف أن السيد جمال الدين الأفغانى كان قد أصدر أول جريدة فى أفغانستان باسم «كابل» كما يرجع الفضل إليه فى صدور جريدة شمس النهار أيام الأمير شير على خان ، فلعل السيد كتب هذه الموضوعات الكثيرة لجريدة أو صحيفة « كابل» أو لجريدة «شمس النهار» على اختلاف الأقوال فى الأقدمية .

وكان السيد الأفغانى يسكن فى منطقة شرقى كابل العاصمة الأفغانية فى حى يدعى « سراجى » وكان الناس فى هذا الحى يلقبونه بالشيخ الكونرى وبالملا الكونرى نسبة إلى موطنه كونر بأفغانستان الشرقية ، ويلاحظ أن أهالى الولايات الشرقية يتمركزون حتى الآن فى الأحياء الشرقية من كابل .

كان زعماء أسرة السيد جمال الدين الأفغانى يقودون الغزوات الهجومية ضد الجيوش الإنجليزية التى كانت تتمركز على الحدود بين أفغانستان والهند البريطانية . إننى ما زلت أذكر جيدا – كأننى أسمع وأرى – تلك الصرخات والهتافات المدوية التى كان يتردد صداها ووقعها الجميل فى جنبات وادى « بيج » الضيق فى كونر عندما أعلن زعماء أسرة السيد الجهاد المقدس ضد الحكومة الإنجليزية التى أعلنت عزمها على إنشاء طريق فى منطقة «مومند» (منطقة القبائل الأفغانية الحرة) المتاخمة لحدود أفغانستان فى إقليم كونر منبت السيد الأفغانى، وكان الإنجليز قد استقطعوها وضموها إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، وما زلت أشاهد تلك الحشود البشرية المتوجهة نحو الحدود بقيادة زعماء سادات كونر للاشتراك فى الحرب المعلنة ضد الإنجليز مع القبائل الأفغانية الأخرى ، وقد حاولت – وأنا صغير – الاشتراك فى الجهاد إلا أن الأخ الأكبر هو الذى اشترك فيه مع بقية أفراد قبيلة « صافى » ومنعنى بشدة وبنوع من الزجر لصغر سنى .

أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى :

قلنا : إن لأسرة السيد الأفغانى منزلة عالية فى منازل الأفغان فى الميادين والمجالات العلمية والسياسية والاجتماعية ، وقد تحدث عنها كل من أرخ للسيد الأفغانى ، أو تحدث عن فلسفته الإصلاحية ، فهل كانت أسرة أخواله تتمتع بمثل هذه الشهرة والمنزلة العالية ؟ هل كانت لها منزلة رفيعة فى المجالات العلمية والسياسية بين القبائل الأفغانية وعشائرها ؟

لعلنا نعرف جميعا كتابا مشهورا فى الفقه الحنفى وهو « وقاية الرواية فى مسائل الهداية » المشهور بين أهل العلم وطلابه فى أفغانستان باسم « شرح الوقاية » لمؤلفه برهان الشريعة محمود بن صدر الشريعة عبيد الله المحبوبى ، وحظى الكتاب بعشرات من الشروح والحواشى ، منها حاشية « لاجبوكى » التى طبعت لأول مرة فى مدينة بشاور ، ومؤلف هذه الحاشية اللاجبوكية هو الملا « بازمير » اليوسفزى ابن الشيخ الياس الزعيم والشيخ الأكبر فى هذه الأسرة ومؤسسها الأول ، وقرية « لاجبوك »تتمتع بشهرة علمية كبيرة بسبب حاشية اللاجبوكى للملا (الشيخ) بازمير ، وبسبب وجود ضريح أبيه الشيخ الياس فيها ، وكان الشيخ الياس هذا قد تعلم الطريقة الصوفية النقشبندية على يد الشيخ آدم المشوانى الأفغانى الذى كان يعيش فى البنجاب بالهند ، وعندما أمر الإمبراطور المغولى « شاه جهان » بطرد الشيخ آدم من البلاد توجه إلى البلاد الحجازية المقدسة ومعه تلميذه ومريده الياس ، وقد توفى الشيخ آدم بالمدينة المنورة عام ١٠٥٣هـ ، وعاد الشيخ الياس إلى بلدته « لاجبوك » وواصل إرشاد الناس على الطريقة النقشبندية ، وتوفى عام ١٠٨٦ هـ عن عمر كان يزيد على ٩٠ عاما .

وكان الشيخ الياس يتمتع بزعامة أسرة أخوال السيد جمال الدين الأفغانى فى المجالات العلمية والروحية ،إلى جانب الزعامة الاجتماعية ، بينما كان ابنه الملا بازمير يمثل الزعامة العلمية فى حلقات الدرس والتحصيل فى مسجد بلدة لاجبوك ، وعندما زاد عدد أفراد هذه الأسرة ، وضاقت بهم بلدة لاجبوك قام الشيخ غلام محمد خان أحد أحفاد الشيخ الياس النقشبندى المجددى بنقل الأسرة كلها إلى مدينة « دير » الحاضرة ، وكان الرجل طموحا فجمع من حوله القبائل ، فاجتمعت له الزعامة الدينية ، وزعامة القبائل بجانب الزعامة العلمية ، تولى بعده

أمر هذه الزعامة المزدوجة ابنه الشهير محمد قاسم خان اليوسفزى ، واستمرت الإمارة والسيادة والزعامة فى هذه الأسرة – أسرة أخوال السيد الأفغانى – إلى عصور متأخرة .

إلى هذه الأسرة الدينية والصوفية والعلمية والسياسية ينتمى الزعيم دولت خان الأفغانى والد السيدة مريم التى تزوجها السيد على الترمذى الجد الأكبر للسيد الأفغانى ، فهو إذا ينتمى إلى جد كريم من سادات كونر وأشرافها ، وإلى جدة كريمة من سادة القبائل اليوسوفزية الأفغانية .

الانتماء المشترك بين الأفغان والفرس :

لاشك فى أن التاريخ المشترك بين الشعبين المسلمين ؛ الأفغانى والإيرانى ، والحدود المتداخلة بين البلدين الشقيقين ؛ أفغانستان وإيران ، والتشابه الشديد بين التقاليد والعادات الأفغانية والإيرانية ، والاشتراك فى الثقافة واللغة ، مع الاشتراك فى كثير من أسماء الأقاليم والمدن والقرى والأنهار ، والانتماء المشترك إلى الجنس الآرى ، كل ذلك له تأثير قوى فى الانتماء إلى صفات مشتركة ، وبالتالى فإن ذلك كله يمهد الطريق للادعاءات فى نسبة المفاخر الأدبية والتاريخية ، وخاصة إذا كان أحد الطرفين يتمتع بمزايا لايتمتع بها الجانب الآخر مثال ذلك كله ما يأتى كنماذج للتوضيح وليس على طريق الحصر :

١ – الاشتراك فى الانتماء إلى الجنس الآرى : من الثابت تاريخيا أن الجنس الآرى أو القبائل الآرية القديمة كانت تعيش قبل الميلاد بآلاف السنين فى مهدها الأول فى أعالى جبال « بامير » أو فى المناطق الشمالية من أفغانستان بالمعنى الأوسع ، وكانت لها هجرتان بعد أن ضاقت بها تلك الأجزاء من أفغانستان ؛ الهجرة الأولى كانت إلى الشرق ، وفيها قامت بنشر اللغة الآرية وآدبها وطقوسها الدينية فى كتابها « الويدا » فى ربوع الهند الفسيحة ، وكانت الهجرة الثانية إلى الغرب وفيها قامت بنشر لغتها الثانية الزندية وآدابها وديانتها فى كتاب « الأوستا » للزردشت الآرى الذى ولد فى مدينة بلخ التاريخية فى شمال أفغانستان ، وقد آمن بها الملوك الآريون من الأسرة الأسبية البلخية المشهورة ، فالديانة الأولى – إن صح هذا التعبير – بدأ ظهورها على أيدى الريشيين (الشعراء) فى أفغانستان ، ثم نضجت واكتملت فى البلاد الهندية ،

الهندية ، فهى ديانة أو طقوس دينية آرية (أفغانية – هندية) والديانة الثانية الزردشتية نشأت على الأرجح فى شمال أفغانستان ، وانتشرت فى إيران وتمركزت هناك ، فهى أيضا ديانة آرية (أفغانية – إيرانية) وعلى هذا فإنه يجوز لكل من البلدين أن يدعيها لنفسه ، وخاصة بعد أن قام الاستعمار بإحياء القوميات التاريخية والعقائد الخرافية للشعوب القديمة لمحاربة الإسلام .

٢ – من الثابت تاريخيا أيضا أن أساطير رستم الخرافية قد تمت وجرت أحداثها بين كل من إقليمى سيسان وزابلستان فى أفغانستان الجنوبية الغربية ، وهما إقليمان تاريخيان قديمان ذكرهما أصحاب الشهنامات أمثال الفردوسى وغيره كثيرا ، وإلى زابلستان هذه ينتمى السلطان محمود الغزنوى حيث كانت أمه من بنات أحد أمرائها ، ومن هنا يلقب أحيانا بالزابلى أيضا ، والإقليمان مازالا موجودين باسميهما التاريخيين ؛ سيستان وزابلستان ، هذا فى هذا الجانب ، وفى الجانب المقابل فى إيران يوجد الآن منطقتان بهذين الاسمين ، بمعنى أن جزء من سيستان التاريخية استقطعته الحكومات القديمة وضمته إلى إيران ، أما زابلستان فلست أدرى كيف وجدت فى إيران الحالية غير أن نقول : تسمية جديدة هناك لنسبة المفاخر الخرافية إليها . علما بأنه لاتوجد حدود مشتركة بين زابلستان الأفغانية وبين ما يسمى بزابلستان فى إيران الحالية ، كما هو الحال بين سيستان الأفغانية وسيستان الإيرانية .

٣ – التاريخ يقول والواقع يثبت أن الطالقان تقع وتوجد فى أفغانستان الشمالية وإليها ينسب عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب ، وهناك الآن إقليم فى إيران يسمى طالقان أيضا ، ولاتوجد حدود مشتركة بين الطالقان الأفغانية التاريخية القديمة وبين الطالقان فى إيران ، ولعل السبب هو وجود عدد من المفاخر الأدبية والعلمية فى الطالقان ، ونسبة هذه المفاخر إلى الطالقان الإيرانية دون الأفغانية .

٤ – ومن الأسماء المشتركة بين البلدين المسلمين أيضا ، مرغاب الأفغانية ومرغاب الإيرانية ، وأسعد آباد الأفغانية فى كونر بأفغانستان الشرقية ، وأسعد آباد الإيرانية ، كذلك أسد آباد الأفغانية وأسد آباد الإيرانية ، أما إسلام آباد ، فاسم لثلاث مدن فى كل من أفغانستان ، وإيران وباكستان . ومن الأسماء

المشتركة فى الأنهار ؛ هلمند الذى يلقب بنيل أفغانستان ، و« هريرود » فى غرب أفغانستان .

٥ – وقديما ادعى الإمبراطور الفارسى دارا الكبير أن أم الإسكندر المقدونى كانت جارية من جواريه حيث قام أحد ملوك اليونان الأقدمين بتقديمها له كهدية ، وعندما غضب عليها أعادها إلى بلادها وهى حامل بالإسكندر الأكبر . فلما ولد الإسكندر وكبر ، قام بالهجوم على الإمبراطورية الفارسية وهزمها انتقاما لأمه المطرودة . فإذا كان الإسكندر قد هزم الإمبراطور الفارسى ، فإنه فارسى الأصل وليس من الأصل الإغريقى ، وبالتالى لم يتلق الهزيمة من الإغريق .

٦ – يدعى بعض الكتاب الإيرانيين أن سليمان عليه السلام ماهو إلا جمشيدا (يما)الإمبراطور الآرى القديم الذى تمكن بسلطانه أن يسخر الجن والنور فى صناعة عرش له يطير فى الهواء . وهدفهم من مثل هذه الخرافات والأساطير نسبة المفاخر الى الجنس الفارسى .

٧ – الأسر البيشدادية والكيانية والأسبية أسر ملكية جاء ذكرها فى كتاب « الأوستا » وكانت تحكم البلاد الآرية (الأفغانية) قبل الهخامنشيين والماديين بزمن طويل ، أى لاعلاقة زمنية بين البيشداديين والكيانيين والأسبيين فى باختر الأفغانية ، وبين الهخامنشيين والماديين فى إقليم فارس القديم . وللبيشداديين والكيانيين والأسبيين مفاخرهم القومية والأدبية والبطولية ، جاء ذكرها فى كتاب « الأوستا » ، هذه البطولات والمفاخر نسبها بعض الكتاب إلى الهخامنشيين والماديين ؛ لأن عظمة الإمبراطورية الهخامنشية والمادية تقتضى ذلك ، إن المجد والعظمة ليس إلا لملوك إيران قديما وحديثا .

٨ – زردشت الآرى من بلخ فى أفغانستان الشمالية وبما أن بلخ خارجة عن النطاق الهخامنشى الإيرانى القديم ، فيجب إذن فرض وجوده وحياته فى الدولة الهخامنشية ؛ لأنه فى نظرهم مفخرة من المفاخر التاريخية ، والمفاخر التاريخية والأدبية والدينية والبطولية يجب ألا تخرج عن النطاق الإيرانى قديما وحديثا . علما بأن كتاب « الأوستا » لايذكر الهخامنشيين على الإطلاق .

٩ – هاجم بعض الكتاب الإيرانيين السلطان الزابلى محمود الغزنوى لمجرد أنه لم يقدر المفاخر الجاهلية التى قدمها له الفردوسى فى الشاهنامه ، فاتهموا السلطان محمودا بأنه لم يكن يجيد الفارسية وبالتالى لم يقدر شاعر الشاهنامه الشهير .

١٠ – وادعاء عدد من العلماء فى إيران وجود كلمات فارسية فى القرآن معروف لايجوز للمسلم الدخول فى تفاصيلها ، وما وصلوا فى ذلك إلى تأويلات خرافية تشبه تأويلات علماء بنى إسرائيل قديما .

إن هذا الاشتراك والامتزاج فى الأسماء والجنس واللغة والأدب والأنهار والحدود يسهل موضوع نسبة المفاخر إلى الجانب الآخر المقابل ، وخاصة إذا كان الجانب المقابل يتمتع بمزايا ادعائية لايتمتع بها هذا الجانب ، والمضحك المبكى فى هذا الشأن أن القائمين بهذا الغش التاريخى يستدلون بما يأتى :

أولا – إن أفغانستان كانت جزءًا من إيران تمكنت القبائل الأفغانية من تكوين دولة مستقلة خاصة بها بطريق أو آخر وفقا لادعائهم الواهى .

ثانيا – وجود مناطق وأقاليم ومدن وقرى وأنهار بالأسماء المشتركة ، ولايهمهم بعد ذلك أن تكون تلك الأسماء حقيقية أو مخترعة ، هى أسماء على كل حال مستعملة فى كل من البلدين .

والدليلان لا أساس لهما من الصحة ، وأقواهما فى نظرهم أضعفهما فى نظر الحقيقة التاريخية والعلمية ، فكون أفغانستان كانت جزءا من إيران فى بعض العصور ليس دليلا على أنها إيرانية ؛ لأن إيران فى بعض العصور تمكنت من الاستيلاء على كثير من البلاد فى الشرق والغرب ، فهل هذه البلاد التى استعمرتها إيران قديما إيرانية ؟ هل يجوز لنا أن نطلق على الهند بأنها جزء من بريطانيا ؟ مع أن بريطانيا حكمت الهند أكثر من مائة وعشرين سنة ، ولو ألقينا النظرة المحايدة على تاريخ المنطقة التى يطلق عليها الآن اسم أفغانستان وإيران فإننا نرى أن إيران كانت جزءا من أفغانستان فى كثير من العصور القديمة والحديثة ، كالعصور الكوشانية والهيطلية قبل الإسلام ، والعصور الغزنوية والغورية بعد الإسلام ، وأيام الدولة الهوتكية والدرانية فى العصور الحديثة ، وإذا كان إطلاق اسم أفغانستان حديثا على الأراضى الأفغانية ، فإن إطلاق إيران على الأراضى التى تسمى اليوم بإيران حديث أيضا ، شأنها فى ذلك شأن أفغانستان تماما .

فالخلفية التاريخية لهذا الصراع قديمة قدم الشعبين المسلمين ؛ الأفغانى

والإيرانى ، وقد تفنن بعض الكتاب فى استغلال هذه الخلفية التاريخية المشتركة تفننا عجيبا ومضحكا ، حتى وصل الأمر بالبعض إلى اختراع الأسماء ، وإذا تعذر عليه ذلك قال مدعيا : إن أفغانستان كانت جزءا من إيران ، وكلاهما مضحك ، وشرالبلية ما يضحك .

رابعا – حركة الأفغانى وظلم ذوى القربى والخصوم :

وقع الظلم على السيد جمال الدين الأفغانى وعلى حركته الإصلاحية مرتين ؛ مرة من قِبَلِ أعدائه الذين عادوه وطاردوه وظلموه وهو حى ، ولم يتورعوا فى الظلم والمطاردة والعداوة عن استخدام أخبث الأساليب المعروفة لديهم ، واتهموه بكل التهم ، وسلبوا منه كل محمدة ، لم يتحروا فى ذلك الحقيقة ، ولم يحاولوا تحليل أفكاره ومواقفه وما مربه من أحداث ، كل ذلك طمعا فى إبادة مايدعو إليه من الأفكار التى دوختهم وخلقت أخطارا لمصالحهم . ولحركة الأفغانى أعداء كثيرون من ذوى القربى ومن غير ذوى القربى ، فقد كان من حظ هذه الحركة أن يتكالب عليها أعداء متناقضون فى ظاهر الأمر ، ولكنهم متفقون على هدف واحد مشترك وهو الحيلولة دون قيام أية حركة إسلامية أصلية قوية فى العالم ، تقف فى وجه ظلم الظالمين ، واستغلال المستغلين واستبداد المستبدين مهما كلفهم ذلك من ثمن . وقدحاولوا بكل الطرق استيعاب هذه الحركة واحتواء زعيمها ، وإيقاف ما يدعو إليه من الإصلاحات ، وقد وصفوه بكل رذيلة وشر ، وأسندوا إليه كل نقيصة ودنيئة ، ومن ثم لم يكن غريبا أن يتشدقوا بتهم ادعائية لايسندها الواقع ، ولاتؤيدها البراهين ، بل إنهم بذلوا جهودا خبيثة على المستويين السياسى والإعلامى لاتهام الأفغانى والوقوف عقبة فى سبيل تحقيق آماله العريضة لتوحيد الشعوب الإسلامية كنواة لإنشاءالجامعة الإسلامية ، وذلك إدراكا منهم لخطورة تأثيرهذه الدعوة الصادقة على أهدافهم وأغراضهم ، وكان هذا الفريق من أعدائه مؤلفا من ذوى القربى ومن غير ذوى القربى ، ومن المنتمين إلى الإسلام ومن غير المنتمين إليه ، ومن أعداء الإسلام . إن ما كتبه الدكتور لويس عوض عن الأفغانى يعد استمرارا – دون شك– لتلك الحملة المسعورة التى بدأت فى حياة الأفغانى ولم تنته حتى الآن . إن أعدى أعداء الأفغانى ، وألد أعداء الحركة الإسلامية ، وأشد أعداء الشرق ، وأكثر

العلماء حبا للغرب وللثقافة الغربية ، وأكثر العملاء تفانيا فى الدفاع عن كابوس الاستعمار الغربى فى بلاد الشرق الذين نقدوا الأفغانى وحركته ، وحاولوا تشويه بعض جوانب من شخصيته الفذة ، لم يبلغوا ما بلغه داعى التغريب والتصليب صاحب القلم المأجور الدكتور لويس عوض فى حلقات بحثه عن الأفغانى الذى نشرته مجلة التضامن التى تصدر فى لندن باللغة العربية ، والقارىء يدرك السر فى هذا الاختيار .

لندن التى تمت فيها مؤامرة سلمان رشدى ضد الإسلام بعد نشر مؤامرة الدكتور لويس عوض ضد الأفغانى بسنوات ، إن العملية سلسلة من المؤامرات متصلة الحلقات تحاك ضد الإسلام وضد زعماء الإسلام فى لندن . فى المؤامرة الأولى قذف الدكتور لويس الأفغانى بكل النقائص والمثالب ، وسلب منه كل المحامد والمحاسن والمكارم ، حتى يخيل إلى كل من يجهل تاريخ هذا المناضل الأفغانى أنه ذلك الإنسان « الذى يتخبطه الشيطان من المس » كالدكتور لويس عوض الذى أصابه مس من شيطان الحقد والتغريب ، ومن شيطان الكراهية والعداء لكل ما هو إسلامى . والغريب أن أسلوب الدكتور لويس بمكانة من الخبث يوحى أن هجومه على الأفغانى مبنى على الدفاع عن الإسلام بينما واقع الحال والمقال يؤكد غير ذلك وهذا الأسلوب الماكر وهو بعض ما تتميز به المؤامرة الأولى فى لندن ضد هذا الزعيم المسلم .

أما المرة الأخرى التى ظلمت فيها حركة السيد جمال الدين الأفغانى ومازال تظلم فهى تخلى المسلمين عنها ، وإهمالهم لها ، وعدم التفاتهم إليها رغم كل المعانى الجميلة والأسس القيمة ، والآمال المتألقة التى كشفت عنها هذه الحركة ، وبعثت فى الشعوب الإسلامية والشرقية الحياة والنشاط من جديد بعد أن ران عليها صدأ الإهمال ، وعلاها وغطاها ركام الغفلة والركون إلى متاع الدنيا فى حياة الأمة الإسلامية فى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى . إننا نرى هذا التخلى والإهمال فى المسلمين عامة ، وفى مواقف بعض من ينتمى إلى العلماء والمثقفين الذين لا يكتفون بالإهمال والتخلى ، بل يتجاوزون ذلك ويضعون الأفغانى داخل دائرة سوداء خاصة يرسمونها له بأنفسهم ، لاتمت إلى الحقيقة بصلة ، وكأنهم يرسمون له صورة كاريكاتورية هدفها التشويه وإسقاط الاحترام والوقار والتقدير،

وبالتالى تشويه صورة الزعامة الإسلامية فى العصر الحديث . فإذا كان الأفغانى هدفا للهجوم القاذع هذه المرة فإن دور الزعماء المصلحين الإسلاميين فى المرات القادمة ، ومجلة التضامن فى لندن عندها استعداد لنشر مثل هذه الهزليات القاذعة . وهؤلاء مازالوا يقومون بإصدار بيانات للنيل من حركة الأفغانى ، وعلى رأسهم الكاتب الأجنبى روبرت كارمن دريفوس الذى اتهم الأفغانى فى كتابه « رهينة الخمينى » بأنه مؤسس الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وامتد إلى الربع الأخير من القرن العشرين ، وتبعه فى ذلك الدكتور لويس عوض الذى هو على دينه وعلى دين ذلك الاستعمار الذى حاربه الأفغانى ، يقول لويس :« كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى ، رجل يوزع السعوط بيمناه وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين الأفغانى ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى عكس ما كنا نتصور . إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى ، وليته كان إيرانيا فحسب ، إنما هو الإيرانى الغامض ، وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون » .

إنه يحاول عبثا تحطيم صورة الثائر الأفغانى لأجل تحقيق هدفه الغامض الماكر الخبيث الذى يرمى من ورائه عزل الشباب المسلم عن ماضيه المجيد ، ومحاصرته فى الحاضر الخاسر ، وتجريده من ثروة تراثه العظيم . ثم جره بعد ذلك بسهولة إلى هاوية التغريب الذى يدعو إليه ،ليرى نفسه فى النهاية ولاشعوريا مكبلا محاصرا ، بين الصليبية التى هى غاية الدكتور لويس ، والصهيونية التى هى أخت الصليبية فى كراهيتها وعداوتها للزعامة الإسلامية .

إن هؤلاء المهملين والمتخلفين الذين يضعون الأفغانى فى دائرة العداوة السوداء عن هذا الهدف الغامض ساهون ، وفى اتهامهم للأفغانى لاغون ، وعن المصالح الإسلامية العليا غافلون ، وإلى الافتراءات الهزلية لكل من روبرت كارمن ولويس عوض لايلتفتون ، وما لهؤلاء القوم لايعقلون ؟ !

إننا نرى هذا التخلى والإهمال فى الموقف لقلة من المفكرين الذين يتركون الأفغانى وحركته الإسلامية وأفكاره الإصلاحية نهبا لكاتب دساس ، لدجال كذاب ، لمغامر حاقد ، لمخاطر مخبول ، لعميل التغريب ، لممثل الأحقاد

الصليبية ، الذى أراد أن ينتقم لأفكاره الغربية فتناول الأفغانى بالإقذاع والافتراء ، واتهمه بتلك التهم المبدعة وهى من اختراع هذا الكاتب الحاقد الذى طعن فى شرف الأفغانى وعلمه وعقيدته ، والقبول بهذا الطعن والسكوت عليه هزيمة منكرة ، ونصر للصليبية الحاقدة التى يدعو إليها ، ونصر للتغريب الذى يؤمن به ويدعو إليه ، ويدافع عنه ، إن كرهه الشديد للأفغانى نابع من حبه الشديد لدينه واحترامه الأشد لدور الغرب الذى هو أحد ربائبه فى احتلال الشرق الإسلامى الذى هو يعاديه بأفكاره المسمومة . إن ماكتبه الدكتور لويس عن الأفغانى قد جاوز كل حد معقول . كل حد فى الإقذاع والبذاءة والافتراء والاتهام ، لم يلتزم بأصول البحث ، ولم يستخدم الأدوات اللازمة للتوصل إلى الحقائق المنهجية التاريخية ، ولم يرجع إلى العصر الذى كان يعيش فيه الأفغانى ، بل رجع إلى عالم الجاسوسية وإلى عالم السفارات والشرطة ، إن هذه العوالم الكاذبة لاتصنع التاريخ . وبناء على ذلك فقد قام الدكتور لويس باستنباطاته الخاطئة وفقا على هواه الغامض دون مراعاة أصول البحث . تلك الاستنباطات التى وضعها فى مخيلته قبل الكتابة عن الأفغانى ، الأمر الذى قاده إلى تجاهل سلسلة من الحقائق ، وإلى تغليب التحليل الشخصى المغلف بالأهداف فى دراسته عن الأفغانى .

كان يجب على الدكتور لويس أن يقوم بإبراز المنهاج التاريخى الذى يقتضى بدوره إبراز العنصر الرئيسى المؤثر فى حركة الأفغانى وفى عالمه السياسى ممثلا فى الحملةالإمبريالية التى تعرضت لها البلاد الشرقية فى تلك الحقبة من تاريخ الشرق .

ونرى هذا التخلى والإهمال فى مواقف بعض المفكرين من علمائنا الأجلاء الذين يتركون زعماء الإسلام نهبا مباحا لبعض الكتاب من عشاق التنصير والتغريب ، وعلى رأسهم الدكتور لويس الذى يفسد العقول ، ويغزو النفوس ، ويملؤها حقدا وضغينة وتشكيكا ، وقلة قليلة من هؤلاء الأجلاء الذين يقومون بإهدار طاقاتهم الفكرية والعلمية التى هى ملك عام للإسلام والمسلمين فى قضايا مصطنعة ، يشغلون بها أنفسهم ولايرون فى حركة الأفغانى الإسلامية العظيمة ما يستحق العناية والدفاع، والوقوف فى طريق من يهاجمها

من الداعين إلى التنصير والتغريب ، وهم يهتمون بالصراعات القولية والقضايا الفرعية أكثر من اهتمامهم بالموضوعات الجوهرية .

ألا ما أبشع الظلم بالتخلى ، والإهمال بترك الزعامة الإسلامية نهبا للئام وبخاصة إذا كان الظلم من أخ لأخيه ، أو إهمال أخ لأخيه ، وتخلى أخ عن أخيه ! ما أحسن من قال :

وظلم ذوى القربى أشد مرارة على النفس من وقع الحسام المهند

لقد آن الأوان ليتفكر علماء المسلمين فى واقع الزعامة الإسلامية وأن يلتفتوا إلى ما تتعرض لها من الهجمات ، وأن يجعلوا العمل والعقيدة مقياسا لتقويم القضايا الفكرية والمناهج الإصلاحية لهؤلاء الزعماء بدلا من مقاييس الأرضية الضيقة المبنية على المصالح والاتجاهات وعلى الشعارات والقوميات والمنافع الزائفة . إن حركة الأفغانى وفكره الإسلامى ليست قضية خاصة بشعب دون شعب ، أو بطائفة دون طائفة ، أو ببلد دون بلد ، إنها قضية كل مفكر وعالم ومؤرخ ، قضية كل مسلم ؛ لأنها حركة إسلامية لإيقاظ الشعوب الإسلامية ، فلا يجب تركها نهبا لأقلام الصليبية ولعشاق التغريب .. كان الأفغانى حصنا حصينا ، وسدا منيعا للدفاع عن الإسلام ، ونقاشه مع أرنست رينان الذى هاجم الإسلام فى إحدى محاضراته فى السربون ووقوفه ضد المادية وتأليفه « الرد على الدهريين » نماذج تمثل بعض الجوانب من دفاعه عن الإسلام . فهل نعى هذه الحقيقة الناصعة فى الأفغانى لنشارك المدافعين عن حركة الأفغانى ، ولنرد كيد الكائدين والحاقدين ليس عن الأفغانى وعن حركته بل عن الحركة الإسلامية ؟ إن هذه الهجمة المسعورة على الأفغانى ترمى من ورائها الهجوم على الزعامة الإسلامية ككلٍّ ، فإذا كان الأفغانى قد جُعِلَ هدفا لهذه الهجمة اليوم فإن دور الزعماء الإسلاميين آت غدا دون شك . إن الدكتور لويس عوض ، وروبرت كارمن دريفوس وأمثالهما لن يقفوا عند هذا الحد ، ومكاتب الجاسوسية فى كل من بريطانيا ، وفرنسا ، وبعدهما أمريكا مفتوحة أمام هؤلاء الذين يرغبون فى الهجوم على الزعامات الإسلامية فى الشرق .

بعض ما افترى عليه روبرت كارمن دريفوس فى كتابه « رهينة الخمينى » :

إن جمال الدين أفغانى من أصل يهودى ، ومؤسس الحركة البهائية الأول فى العالم

ومؤسس حركة الإرهاب فى العالم فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وقد امتدت هذه الحركة الإرهابية إلى الربع الأخير من القرن العشرين الميلادى . والبهائية التى أسسها أو نظمها الأفغانى هى المسئولة عما حدث فى إيران فى العصر الحاضر ، وجمعية « العروة الوثقى » التى أسسها الأفغانى لوحدة المسلمين قد تجمعت تحت رايتها كل التنظيمات الإرهابية كما يقول روبرت كارمن دريفوس فى كتابه الهزلى « رهينة الخمينى » ويلاحظ أن الدكتور لويس عوض لايختلف عن هذه الروح الهزلية عند تسجيله المنهج السياسى للسيد الأفغانى .

ما افترى عليه الدكتور لويس عوض : « كنا جميعا مخطئين حين تصورنا أن السيد جمال الدين الأفغانى رجل يوزع السعوط بيمناه وينشر الثورة بيسراه . كنا مخدوعين حين تصورنا أن جمال الدين ثائر إسلامى ، ومصلح اجتماعى ، ورجل عظيم أيقظ الشرق من سباته . إن جمال الدين الأفغانى هو عكس ما كنا نتصور . إن اسمه ليس هو اسمه ، إن اسمه الأفغانى بينما هو إيرانى . وليته كان إيرانيا فحسب إنما هو الإيرانى الغامض . وهو غامض لأنه أفاق مغامر متلون » .

« مغامر مجهول ، كافر مجنون ، مخاطر مغمور ، زنديق مخبول ، ملحد مأجور ، أفاق دساس ، دجال كذاب ، متلون متفرنج مرتد ، سكير مهيج ، سياسى زعيم ، إرهابى عميل مزدوج رجل لكل القصور داع للفوضوية واللاأخلاقية منكرلوجود الله ينتحل لقبا فى كل دولة . فهو بين الأفغانيين رومى . وبين الأتراك والمصريين أفغانى وفى بعض الدول إستانبولى ، وفى بعضها الآخر بغدادى

« ولد جمال الدين الأفغانى فى قرية « أسد آباد » بالقرب من مدينة همدان فى غرب إيران وليس فى قرية « أسعد آباد » الأفغانية .

ونشأ نشأة شيعية . وتلقى التعليم على أيدى الشيعة والبهائيين »

« وقد نشأ الأفغانى فى هذه التقاليد الشيعية التى جعلت منه إنسانا مزدوج الشخصية بل ومتعددها ، يفصل الكلام والتعليم بحسب من يخاطبه ، وبحسب ظروف الزمان والمكان ، حتى بدت تعاليمه وأقواله المأثورة ومواقفه وتحركاته جملة من المتناقضات التى يصعب نسبتها إلى رجل واحد » .

قذاعة الأسلوب وبذاءته :

بهذه البذاءة ، والقذاعة ، وبهذه الإساءة الفادحة ، وبهذا الأسلوب الفاحش قام لويس عوض بتوجيه سهام الحقد والكراهية إلى زعيم من زعماء المسلمين فى العصر الحديث بغرض تشويه الزعامة الإسلامية والتعبير عما يكنه من الكره والحقد نحو الإسلام وزعامته . وقد قام باختيار عنوان ماكر خبيث للإيفاء بهذا الغرض الخبيث « الإيرانى الغامض » واختار وقتا مناسبا لنشر سمومه القاتلة نظرا لتوتر العلاقات بين الدول العربية وإيران للصيد فى الماء العكر ، وذلك لإصابة هدفين بسهم واحد ؛ إشعال نار الفتنة بين البلاد والشعوب الإسلامية ، وإثارة الشك فى الزعامة الإسلامية ، بالإضافة إلى إثارة الفرقة بين السنة والشيعة بطريقة دق الطبول إلى جانب أذن الطائفتين الإسلاميتين ؛ ليتخذ من ذلك طريقه إلى إلحاق الضرر بوحدة المسلمين ، معتمدا فى ذلك على تقارير الجاسوسية والبوليس والسفارات ، والنبش فى القبور فى كل من بريطانيا وفرنسا ، وهو يعلم أن مثل هذه التقارير لا تصنع التاريخ . وقد قام باختيار مجلة التضامن فى لندن ، التى اشتركت معه فى صنع المؤامرة ضد الزعامة الإسلامية بإعطاء مقالاته صفة الجرأة والشجاعة والإقدام على بيان الحقيقة ، وهى بعيدة كل البعد عن الحقيقة والجرأة .

يأتى نشر هذا البحث البذىء بهذا العنوان المثير وبهذا الأسلوب المؤلم اللاذع ، وبهذا المنطوق الغاضب ، وفى هذه المرحلة المهيجة التى أصبح فيها القتال الدائر بين العراق وإيران يأتى بالأخضر قبل اليابس ، ولايصل إلى سمع القارئ العربى عن الثورة الإيرانية إلا ما يغضبه ويؤلمه ويثير فى نفسه اليأس والأسى والحزن الشديد . وهو يرمى من وراء هذا التوقيت الزمنى إلى إثارة نوع من الكراهية والعداء بين الإيرانى والعربى ، وبين المسلم الذى لاينتمى إلى الأصل العربى ، وبين المسلم من الأصل العربى . والقارئ العربى يدرك ذلك ويشهد بالخبث والبراعة لمجلة التضامن ولكاتبها لويس فى نطاق هذه المؤامرة المدبرة ضد التاريخ الإسلامى فى أروع صوره فى العصر الحديث .

غموض الهدف :

إن هوى لويس عوض أو هدفه الغامض هو الذى جعله يقف على طرف مناقض تماما لما كتبه علماء شرقيون وغربيون عرفوا بسعة الثقافة والقدرة على

التعميق والتحليل والتمحيص من أمثال الإمام محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، ومحمد باشا المخزومى ، وعبد الرحمن الرافعى فى الشرق ، ومن أمثال رينان وبراون وجولد زيهر ولوتر ستودارد فى الغرب . إن القارئ العربى لما يكتبه لويس عوض يدرك بالتأكيد من موقفه الثابت من كل ما يتصل بالثقافة الإسلامية وهو يعبر عن هذا الموقف المحدد تصريحا أو تلميحا أو من بين السطور والعبارات ، وإصراره الشديد على هذا الموقف الغامض يدفعه إلى افتعال فى التدليل ، وإلى المبالغة فى تجريح الزعامة الإسلامية من الشواهد الواهية ، والمصادر الضعيفة فى عالم الجاسوسية ، وهذا الذى فعله فى سلسلة مقالاته الهزلية عن الأفغانى الذى خاب فيه مسعاه وهزل مبتغاه ، تلك التى تتسم بالشطط والشمط ، والبعد عن الحقيقة ، والجنوح إلى الإجحاف ، وقد تجاوز فى ذلك كل حد معقول ، إنه من التجنى والإسفاف حقا أن يحاول كاتب دساس النيل من قدر الثائر المصلح الأفغانى ، وأن يحاول المساس بعظمة الداعية المسلم أو التشكيك فى نقاء فكره الإسلامى ، وسلامة عقيدته الدينية ، ومنهجه السياسى ، وحياته الفكرية . إن الأفغانى الثائر من أعظم شخصيات العالم الإسلامى والشرق فى القرن التاسع عشر الميلادى . إن ما كتبته عنه أقلام إسلامية وعربية وأجنبية من تدينه ، ووضوح فكره ، وصراحة قوله ، وجرأته وإخلاصه ، وتفانيه ، ليس بشىء فى نظر لويس عوض الذى تمرد على الأفغانى وعلى من كتب عنه من العلماء والكتاب والمؤرخين فى مصر ، وفى غيرها من بلدان العالم فى الشرق والغرب ، والذى وجه إلى الأفغانى اتهاما ظالما فى مجازره الفكرية وفظائعه التاريخية التى جعلتنا نفقد كل احترام له ولزملائه الذين يسيرون وراءه فى هذا الدرب الذى يؤدى إلى تشويه كل مراحل التاريخ الإسلامى وصناعة العظماء والزعماء فى الإسلام .

إن هواه المرموز وهدفه الغامض هو الذى دفعه إلى اتهام الأفغانى بالمغامرة والإرهاب وبالكذب والزندقة ، ولتحقيق هذا الهدف الغامض قام بتأويل أقوال وأفعال الأفغانى ، وبتأويل أقوال وتصرفات المعاصرين للأفغانى على نحو يوافق نواياه السيئة وأهدافه التى تتسم بالغموض والرمزية .

ولأجل ذلك فرق فكر الأفغانى إربا إربا ، منطلقا فى عوالم من الخيال الباطل والاتهام الظالم لأول لها ولآخر ، وهو فى النيل من قادة البعث الإسلامى أكثر مكرا وأشد خبثا وأعمق هدفا .

كان الأفغانى الذى هاجمه لويس عوض نجما لامعا فى تاريخ حركات البعث الإسلامى ، شديد الإيمان بالقوة الديناميكية للإسلام ، وكان يؤمن ويدرك أن العقيدة الإسلامية هى العامل المشترك بين الشعوب الإسلامية التى كان الاستعمار الغربى يتسلل إليها ، وكان صاحب مدرسة فكرية كبرى فى تجديد الفكر الإسلامى وتنقيته مما علق به من أباطيل الوهم وخرافات العقيدة الباطلة .. كانت آثار أقدامه فى ذلك ثابتة راسخة ، وغبار معاركه الثورية تغطى سماء الشرق ، وكان صدى أفكاره يتردد بين جنبات الهندوكش ، وكانت آلامه وأحزانه الإسلامية ممتدة من كونر إلى كابل إلى طهران ، إلى الهند والقاهرة والآستانة وباريس ولندن . وكان يقاوم سلطة البابا فى روما من خلال نشاطه السياسى والفكرى وأعتقد أن هذا أحد الأسباب القوية التى جعلت الأفغانى هدفا لحملة لويس عوض المسعورة التى ليس من المستبعد أن تكون حلقة من حملة أكبر تدبر للنيل من الزعامة الإسلامية .

المراجع

اسم الكتاب	اسم المؤلف
١ – تاريخ الإمام محمد عبده ج١ ص٢٧	للأستاذ رشيد رضا
٢ – التاريخ السرى	للمستر بلنت
٣ – تراجم مشاهير الشرق	للأستاذ جرجي زيدان
٤ – الإسلام والتجديد	للأستاذ شارلز آدمس
٥ – رسالة الرد على الدهريين (مصدرة بترجمة الأفغانى بقلم محمد عبده)	للسيد جمال الدين الأفغانى
٦ – الثورة الفارسية	للأستاذ براون
٧ – تاريخ الحركة القومية عصر إسماعيل ج٢ ص١٥٠	للأستاذ عبد الرحمن الرافعى
٨ – حاضر العالم الإسلامى	تعليق أمير البيان شكيب أرسلان
٩ – الإسلام فى القرن العشرين	للأستاذ عباس محمود العقاد
١٠ – زعماء الإصلاح فى العصر الحديث	للدكتور أحمد أمين
١١ – مجلة الهلال الصادرة فى إبريل ١٨٩٧م – ٢٩ شوال ١٣١٤هـ	
١٢ – جمال الدين الأفغانى باعث النهضة الفكرية فى الشرق	للأستاذ محمد سلام مدكور
١٣ – العروة الوثقى	المصدرة بترجمة الأفغانى بقلم مصطفى عبد الرازق
١٤ – مجلة المنار	للأستاذ رشيد رضا
١٥ – الآداب الماسونية	للأستاذ شاهين مكريوس
١٦ – الثورة العرابية	للأستاذ محمود الخفيف
١٧ – الوقائع المصرية	للأستاذ جولد سيهر
١٨ – تاريخ الماسونية العام	للأستاذ جرجى زيدان
١٩ – الحركات الحديثة	للأستاذ (ولسن)

الفهـرس

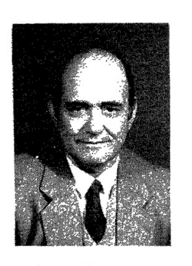
الموضوع	الصفحة

طبعت بمطابع
الفاروق الحديثة للطباعة والنشر
خلف ٦٠ شارع راتب باشا - حدائق شبرا
ت : ٦٤٧٥٢٦ القاهرة

رقم الإيداع ٣٤٦٩ / ١٩٩١ م
I.S.B.N : 977 – 00 – 1357 – 9

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب :



يتناول شخصية الأفغانى الذى ترك آثارا باقية على الساحة الإسلامية ، لما منحه الله من قوة فى العقل ، وسداد فى الرأى ، وإخلاص فى العمل ، وقد امتزجت شخصيته بالوحدة الإسلامية ، حيث كانت حياته فى منتهى الخصوبة والثراء ، والتضحية والفداء وكانت حركته الإصلاحية متعددة الاتجاهات والأبعاد ، ظهرت آثارها فى كل الحركات .

كان الأفغانى مصلحا دينيا ، وزعيما سياسيا .. جمع بين الزعامة الروحية والفكرية .. من الناحية الدينية أدى مهمة الإصلاح والتجديد ، فأهاب بالأمم أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع به إلى مبادئه الصحيحة ، وأن تطهره من الأوهام والخرافات التى أفضت إلى تأخر المسلمين ، وأن تعتمد على منطق العقل دون أدنى إهمال لسلطان القرآن والحديث ، وأن تصل الدين بالدنيا ، وتفتح الأبواب أمام حرية الفكر فى الحدود التى يحددها القرآن والحديث لينطلق منها العقل الإسلامى فى الاستنباط والاجتهاد .

ومن الناحية الفكرية أدى مهمة إثارة البصائر ، وتوجيه الأفهام إلى البحث عن الأصول ، وتحرير العقول من الجمود والتقليد ، فكان رحمه الله أشبه بجامعة انتشرت فروعها فى أنحاء متفرقة ، وكانت محاضراته فيها تتميز بالشمولية ، والتحرر من القيود التى رانت على العقول والأذهان .

ومن الناحية السياسية استنهض الهمم ، واستثار فى النفوس روح العزة ، والتطلع إلى الحرية ، وغرس بذور الحركات الإسلامية ، ودعا إلى إنشاء جامعة إسلامية تتحد فيها الشعوب الإسلامية ، كما دعا إلى مقاومة التدخل الأجنبى ، والحكم الاستبدادى وطالب بالعمل لإنقاذ المسلمين من الذل والاستعمار .

أثر الأفغانى فى الصحافة والثقافة والأدب ، فطالب تلامذته بإنشاء الجرائد والمجلات ، والكتابة فيها وفى الأدب لمعالجة القضايا الوطنية وإتمام للفائدة ألحق بهذا الكتاب المقال الذى دفعنى إلى كتابته ما كان يجرى فى الصحافة العربية من المساجلات والمساهمات حول فكر الأفغانى وأبعاده المتعددة . نسأل الله أن يعم به الفائدة .